روايات الهلال
Rewayat Al Hilal

سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمي

تصدر عن مؤسسة
دار الهلال

العدد ٤٨٦ يونية ١٩٨٩
ذو القعدة ١٤٠٩ هـ
NO . 486 ju . 1989

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
سكرتير التحرير
محمود قاسم

● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع : نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٧٥ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا : ٨٥ ليرة ، لبنان : ١٢٠٠ ليرة ، الاردن : ٢٠٠٠ فلس ، الكويت : ٧٥٠ فلسا ، العراق : ٨٠٠٠ فلس ، السعودية : ١٠ ريالات ، الدوحة : ١٠ ريالات ، البحرين : ١٢٠٠ فلس ، دبى ١٠ دراهم ، ابوظبى : ١٠ دراهم ، الحديده : ٨ ريالات ، مسقط ١ ريال ، المغرب : ٢٠ درهما ، غزه والضفه : ١ دولار ، لندن : ١٥٠ بنس ، عدن دولاران .

اشترك فى روايات الهلال

الكويت : السيد عبد العال بسيونى زغلول الصفاة - ص . ب رقم 13079٢١٨٣٣ - تليفون - ٤٧٤١١٦٤

للحصول على نسخ من روايات الهلال
اتصل بالتلكس : 92703 HILAL. U. N.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

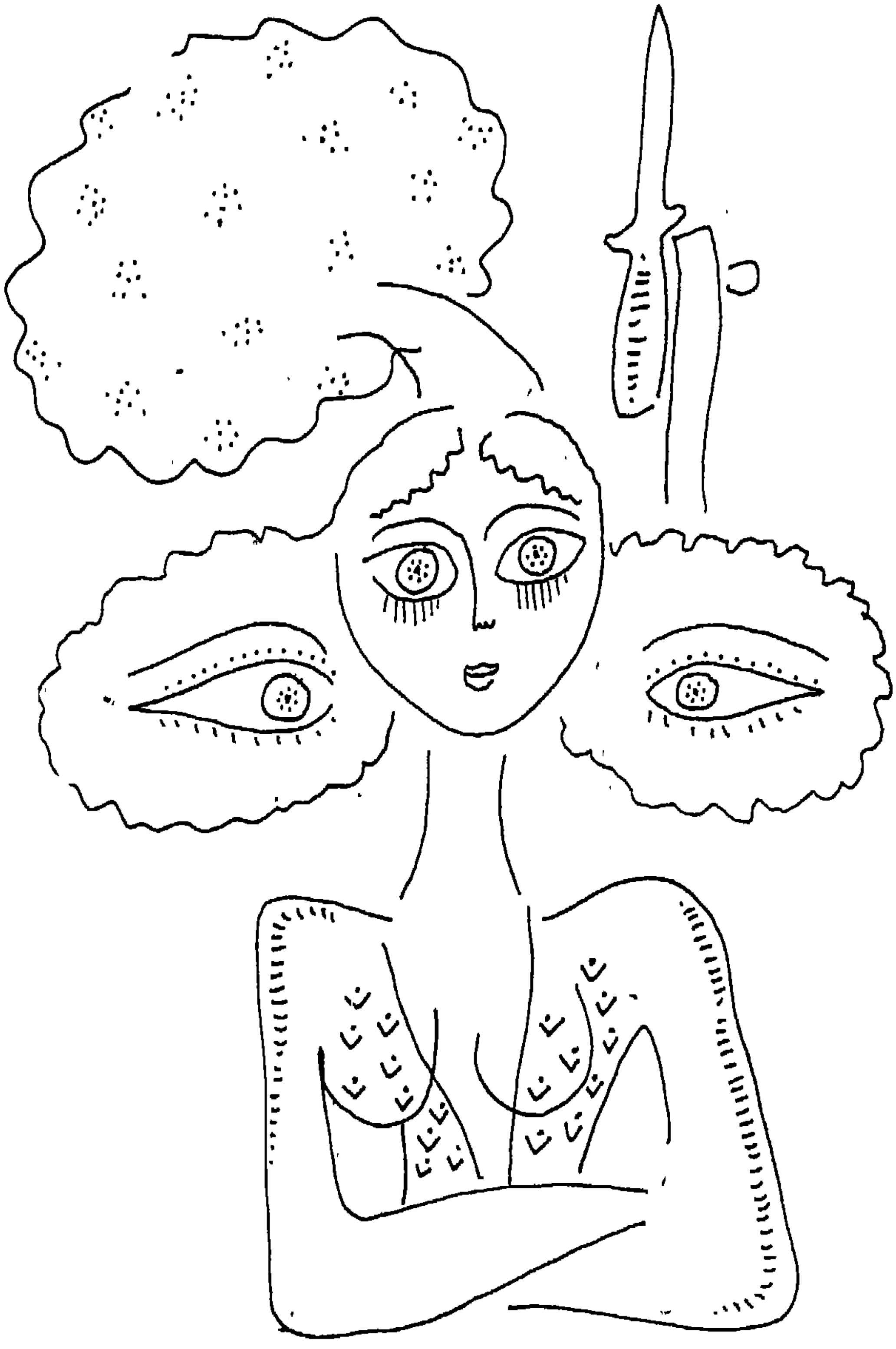
روايات الهلال

أحمد داود

بقلم

فتحي غانم

دار الهلال



١

عندما قال لى الطبيب : إنى مريض . قابلت ما سمعت بوجوم وبلادة ، وكأنه يتحدث عن شخص أخر لا أعرفه ، أو ربما أعرفه ولكننى لا أستطيع أن أحدد نوع علاقتى به . ومع ذلك لابد أنى كنت خائفا بل مذعورا دون أن أدرى فقد عانيت من تقلصات فى بطنى .. وكنت ألهث وأنا أمشى كما لو كنت أجرى هاربا من شىء مجهول يجرى خلفى ويطاردنى ، وأنا أرفض أن أواجه أن الذى أريد أن أهرب منه قابع فى أعماقى .

على أية حال ، ليس هذا هو الذى أريد أن أحدثكم عنه ، فأنا أكتب لأسجل تجربة شخصية غريبة بعد أن راودتنى تلك الأحلام الليلية ولا أدرى كيف بدأت هذه الأحلام ، والأمر يبدو عجيبا حقا ، وإن كانت هناك بعض التفسيرات العلمية التى يتحدث عنها علماء معاصرون عن تقمص الأرواح والتخاطر بين الأفراد عن بعد ، وقدرة العقل فى السيطرة على المادة وغير ذلك من الأمور التى يؤكدها العلماء والتى كانت تبدو حتى وقت قريب كأحداث شاذة لا صلة لها بالعلم . بل كان البعض ينكر حدوثها ويقول للذى يؤكد حدوثها إنه خضع لتأثير أوهام كما يخضع السائر فى الصحراء إلى مشاهد السراب . ولكن يبدو أن ما يقوله العلماء أن الجسد المريض يفرز أنواعا من الهرمونات تحدث هذه التأثيرات العجيبة هو قول صحيح . فالمرض الذى أصابنى ويوشك أن يخرجنى من هذه الدنيا قد ساعد على افراز نوع من الهرمونات حولتنى إلى شخصين أحدهما المريض ، والثانى ذلك الذى تراوده أحلام الليل . وهو أحمد سالم الذى يعيش فى بلدة "د" على مقربة من القدس . ولا أدرى كيف تتقمصنى شخصية أحمد ، ولا أدرى كيف عرفت القدس التى لم أزرها قط . ولكنى واثق أنى رأيتها من خلال هذا الشخص الآخر الذى هو أحمد . ولقد حاولت أن أتعرف عليه ، وأعرف لماذا أتقمصه ، أو لعله هو الذى يتقمصنى ، فلم أصل إلى نتيجة

محددة . كل ما وصلت إليه هو أن جدى لأمى كان له شقيق يعيش فى فلسطين ، وكان ذلك فى تلك الأيام الخوالى عندما كانت الأرض كلها اسمها الشام . والناس جميعا عربا . وهى أيام يعرفها جدى الذى كان يحكى لنا نحن أحفاده ما سمعه عن أبيه عندما ذهب فى جيش إبراهيم باشا إلى الشام ليحارب الأتراك فلما عاد أبو جدى من الشام ترك هناك زوجة وعيالاً . وكان يزورهم بين الحين والآخر ويغيب عندهم شهورا أو سنوات . وكان جدى يزور أشقاءه فى الشام ثم انقطع عنهم . ولما مات فى مصر رأيته مسجى على سريره ، وكان طويلا برزت قدماه العاريتان ، وقضيت بعض الوقت وأنا أريد أن اقترب من جسده ، وألمس أصابع قدميه العاريتين . وكان خيالى يسرح مع جسده المسجى على الفراش فأكاد أراه ممتدا حتى الشام تلك البلاد التى لم أزرها والتى يسكنها أشقاؤه . وقبل أن أنتبه جذبتنى الأيدى بعيداً عن فراش الموت بينما ارتفع صوت النواح والبكاء يزلزل أرجاء البيت ، ومع غياب جدى لم يعد أحد يذكر شيئا عن أهلنا فى الشام ، ولكن شيئا ما ظل محفورا فى أعماقى كما لو كان سردابا فى نهايته عالم مسحور يقف فيه جدى بحكاياته وأهله وعياله فى الشام . وأصبحت الشام ذلك الأفق الذى يمتد إليه الخيال ، والذى تعيش فيه الذكريات المنسية ، وذلك الاتساع أو تلك الرحابة التى تهفو إليها النفس عندما تحاصرها هموم الواقع وأحزانه .

ولقد مضت الأيام والسنوات فنسيت كل هذا فقد تورطت فى همومى وغرقت فى أحزانى اليومية ، حتى سمعت الطبيب يقول لى ما قاله . فإذا بهذا الشىء العجيب يحدث ، وإذا برؤى تأتينى وأنا نائم ، فإذا بى فى تلك القرية فى فلسطين ، وإذا بأحداث تجرى هناك تأسرنى ، فإذا استيقظت أغمض عينى لعلى أحتفظ بالحلم الذى لا أكاد أصدق أنه مجرد حلم أريد أن أحتفظ به وأحتفظ بأحمد سالم . فهو أنا لأن كل ما أحياه فى الليل هو كل ما بقى لى ، ولا شىء سواه ، ولهذا أريد أن اكتب ، وأن أسجل كل شىء ، لأنه سيبقى من بعدى وسوف يذكره الناس بعد أن يتشوه جسدى ويوارونه التراب .

ولا أدرى كيف أبدأ الكتابة ، ولكنى أعرف أنها ضرورية ، وأنها قدرى المحتوم .

ولقد رأيت فيما يرى النائم . أنى أجرى لاهثا نحو قريتى "د" فى يوم قائظ وهلع كبير ينهش صدرى ، لأن أمى وأبى وأخوتى وأطفالهم يذبحون بالخناجر بينما ينسف الديناميت بيوتنا ، ولا أعرف كيف جاءنى النبأ وقد اتبين تفاصيل ذلك فيما بعد ، فالذى أراه يأتى كخفقات قلب تهزنى ولا أدرى إذا كانت تحيينى أم تميتنى ، وهى مختلطة مشوشة شديدة الاضطراب ، تصفو أحيانا وتتشابك وتتعقد أحيانا . وكل ما أذكره الآن أنى هبطت من سيارة الصليب الأحمر التى كان يركبها الطبيب النرويجى عند البركة التى طالما مررت بها وأنا فى طريقى إلى المدرسة وتقدمت خطوات وأنا واثق أنى رأيته . داود بشحمه ولحمه . رآنى كما رأيته ، وتهلل وجهه كما تهلل وجهى ، فإذا كان داود موجوداً فلا أظن أنه يسمح بذبح أبى وأمى وأخوتى . الأنباء التى وصلتنى مبالغ فيها ، ولكن هؤلاء الغرباء من اليهود منتشرون فى كل مكان . بينهم فتيات . لعل سارة بينهن .. إحداهن .. تلوح بخنجر . يا إلهى إنه ملوث بالدماء . أسرع إلىّ ياداود ، خبرنى ما الذى حدث ، سمعته يصيح أحمد وصحت به داود ، كان يقترب منى وأنا أقترب منه وكانت فى يده بندقية ولكن منظرها لم يزعجنى . فقد كانت نوبة الهلع تتراجع وتنحسر بسرعة ، وذكريات صداقتنا أنا وداود تتدفق فى رأسى ، حاملة معها مشاعر مختلطة ، لا أعرف كيف أميز بين ما فيها من قلق وخوف وأمل ورجاء . كانت بينى وبين داود حياة . لنا مغامراتنا ، وكان يتقدم فأراه وأرى فى خيالى سارة شقيقته ، أتكون بين الفتيات ، أتكون تلك التى تمسك بالخنجر يقطر دما . لا إن أمها فورتينيه وأبوها شالوم لن يسمحا بذلك وهاهو داود يقترب وأنا اقترب ، وهؤلاء الرجال الملتحون يقفون هناك عند الربوة فى الطريق إلى ضيعة شوكت الانصارى بجوار سيارتين للنقل يرتفع فوق كل سيارة مدفع رشاش ، وهاهو رجل ضخم الجثة ، مارد يصرخ فى داود بلغة أجنبية ، ومن خلف المارد قفزت فتاة تلوح بخنجر ، كان داود ملزال يقترب منى وجهه يبتسم ، وأنا الآن أريد أن أبادله البسمة ببسمة وأن أسأله متخابثا أن يسابقنى حتى شجرة الزيتون عند بيت الأنصارى كما كنا نفعل ونحن أطفال ، وكنت واثقا أنه سيقبل التحدى وسنجرى معا إلى الشجرة ، وكنت واثقا أنى سأسبقه ، الأرض أرضنا ، والشجرة شجرتنا ، وكلاهما يتحالفان معى ضد داود الذى يعيش فى القدس حيث دكان أبيه الساعاتى عندما نصل إلى الشجرة سألقى بجسدى تحتها

فتستقبلنى فى أحضانها الوارفة بظلالها ، ويرتمى بجوارى داود يلهث وهو يزفر فى غيظ ، سأفوز فى المرة القادمة . مازال داود يقترب منى ، ومازلت اقترب منه ، أصبح على بعد خطوتين ، ذراعاه تمتدان سوف يعانقنى ، وسوف أعانقه ، كل ما سمعته كان أوهاما . هذه الدماء التى تلطخ الخنجر فى يد الفتاة ، هى دماء دجاجة مذبوحة .. وهذا الدخان البعيد هو دخان يتصاعد من أفران تطهو الطعام . داود يخرب بيتك . ومددت ذراعى . سمعت ذلك الصوت الهادر وارتطم صدرى بشىء حاد ثقيل اخترقه . ونظرت إلى داود أسأله ما الذى يحدث ، ما الذى حدث ، كانت الابتسامة تفيض من عينيه ،ووجهه يشحب وذراعاه تتسمران وسمعته يصرخ أحمد .

جاء صوته من بعيد ، كنت أسقط ، أهوى نحو الأرض ، أرضنا . وكنت أرى داود وهو طفل فى دكان أبيه ، ثم يختفى لأرى شوكت الأنصارى أغنى رجال قريتنا . وسمعت من يهمس فى أعماقى لقد نفذت الرصاصة فى قلبك وتمزق والدم يتفجر من قلبك ويسيل على الأرض وكلها لحظات وتغيب عن كل شىء . ولكن .. هناك حساب لابد منه حتى قبل أن تذهب وتغيب عن هذا العالم . لم تبق لك سوى ثوان معدودات ، ربما أقل لكى يتم الحساب ويكمل الفهم . فهذا هو كل ما تطلبه ، أن تفهم لماذا كانت حياتك على هذا النحو . ولماذا كانت نهايتك على أرضك على هذا النحو . لو فهمت الإجابة على هذا السؤال فى هذه الثانية المتبقية لى من الوعى ، فهذا يكفى . الويل لى أن أموت قبل أن أفهم ، قبل أن أدرك ما الذى حدث ، وما الذى يحدث . هذا هو الضياع الحقيقى . سأكون فى عداد المغفلين قبل أن أكون ـ كما أتوقع أن يقولوا عنى الآن ـ فى عداد الشهداء المناضلين .

من أين أبدأ الفهم . من هذه الرصاصة التى انطلقت .. إن داود لم يطلق الرصاصة . كان يجرى نحوى مادا يديه ، ذراعاه تطولان لتمسكا بذراعى ، عيناه ترسلان نظرات تريد اللقاء بنظرات عينى ، ابتسامة وجهه تبحث عن ابتسامة وجهى ، هذا هو داود الذى عرفته ، ولو كان وصل إلى قبل الرصاصة . لتسابقنا من جديد وضحكنا ، وارتمينا على الأرض نلهث . مثلما كنا نجرى أيام الأنجليز ، ولكنه نظر إلى فى دهشة ، فى عيناه فزع ، والتفت وراءه ، وآخر نظراته إلى كانت كلها رعب ، تقدم خطوة ، ثم استدار كما لو كان عقربا لدغه .. إنه يبتعد وأنا أسقط على أرضى .. والرحلة بين الوقوف والوصول إلى أرضى طويلة . مازالت هناك فرصة للفهم أثناء

السقوط ، فى لحظات السقوط . ليس هناك أمل فى أن أعود إلى الحياة ، ولكنى لو فهمت فسوف يبقى الفهم ، وسوف تبقى الحياة وتستمر من خلال هذا الوعى الذى حصلتْ عليه .

لا وقت الآن للندم ولا الحزن ، ولا وقت للألم ، فأنا ذاهب للقاء ذلك الطفل الذى كنته يوما ما . نفس اليوم الذى جاء فيه رجال الحكومة يركبون البغال ويتقدمون فى قريتنا . كان أبى هو الذى لمحهم قادمين من جهة البركة ، فلما اقتربوا من دربنا نادانى أبى وقال لى "اتبعهم وأحضر لى أخبارهم" سرت وراءهم حيث ترجلوا عن البغال ودخلوا بيت مختار العجوز وسرعان مادبت الحركة داخل البيت وخارجه . ورأيت مختار العجوز يخرج مع رجال الحكومة ويركب فرسه ويتجهون إلى ضيعة شوكت الأنصارى . عدت إلى أبى . فعلمت أن أخبار الرجال قد سبقتنى إليه .. وقد اجتمع مع رجال آخرين فى فناء دارنا يتوقعون مجىء الشراكسة من ضيعة الأنصارى مع رجال الحكومة لجباية المال .

كنا نخاف الشراكسة ، فإذا هاجموا قريتنا الهبوا بالسياط كل من يقف فى طريقهم . وكان أبى يذهب مع رجال قريتنا إلى شوكت الأنصارى يشكون له بطش الشراكسة . فيضحك ساخرا ، ويقول إنهم لا يضربون أحداً بالسياط ، لأنه أصدر أوامره لهم بأن يكتفوا بفرقعة السياط لإرهاب من يفكر فى اعتراض أوامر شوكت الأنصارى . وكنت أسمع الرجال يرددون الحكايات عن مقابلاتهم مع شوكت السيد المهاب الذى يزعم أن رجاله الشراكسة لا يريدون إيذاء أحد . لأنه ليس بحاجة إلى أن يؤذى الناس ، فهو يعرف أن التهديد أشد تأثيرا من تنفيذه ، ولقد نظر إلى الرجال ذات يوم وقال لهم ، إنى أفعل بكم ما أشاء بفرقعة سوطى . ولو كان الأمر يحتاج إلى أكثر من فرقعة السوط لكان لى شأن آخر معكم .

ومن الحكايات التى سمعت الرجال يرددونها ، أن رجلا اسمه أبو قاسم كانت له بيارة قريبة من ضيعة الأنصارى ، وكان معروفا أنه كان قاطع طريق فى منطقة أزمير ، وجمع من النهب والسلب أموالاً كثيرة فنفاه السلطان وجاء إلى أرضنا واستولى على البيارة التى دفع ثمنها بعد أن خطف إبن أحد الأثرياء وأعاده إلى أهله بعد أن حصل منهم على خمسمائة ليرة ذهبية .. فاشترى جمالا وتزوج وأخذ يتجول بين العشائر حتى أستقر

فى تلك البيارة .. ولكن شوكت الأنصارى رفض هذه الجيرة ، ورفض أن ينافسه أحد القوة والجبروت فى أرضنا ويقال إن مسكن أبو قاسم كان مليئا بالغنائم والصناديق المكدسة بالذهب ، فهاجمه شراكسة الأنصارى وانقضوا عليه ، وقتلوه ضربا بالسياط . واستولوا على داره بما فيها من كنوز . ومنذ ذلك الوقت البعيد ، أصبح الأنصارى سيداً مطلقا لا ينازعه أحد ، لا يحتاج إلى أن يفرض كلمته غير فرقعة سوط .

وكنت أسمع أحيانا حديثا بين الرجال فى دارنا ، عن أمنيات تدور حول قتل الأنصارى والخلاص من شراكسته الطغاة ، ولكنه كان حديث سمر ينتهى بابتسامات وكلمات ساخرة ، يسخر بها الرجال من أنفسهم لا من أحد غيرهم .

كان أبى طويلا أبيض البشرة ، له شارب بنى وكانت عيناه بنيتين فيهما غضب وتحد . كنا نهابه ونحترمه . وكانت كلمته فى البيت هى قانون حياتنا . وكان طعامنا وشرابنا وملبسنا وكل مافى حياتنا منه . كان يذهب إلى القدس ، ويعود ومعه عربة كبيرة يجرها بغلان . وقد حملها بكل ما يخطر أو لا يخطر ببالنا من ملابس وطعام . وكان الجميع يرتدون نفس القماش ، أنا وأخوتى ، وكانت النساء فى دارنا ، أمى وشقيقاتى ، وزوجتا شقيقى يرتدين جميعا نفس القماش ، وكان يشرف بنفسه على طعامنا . ويرقبنا بعض الوقت ونحن نأكل ليطمئن إلى حالنا ، ثم يمضى إلى حجرته . حيث تحضر له أمى طعامه ليأكل وحده بعيداً عنا .

قال أبى للرجال : الآن علينا أن ننتظر الشراكسة ، سوف يطلبون المال الذى تريده الحكومة والمال ليس معنا ، وإذا لم يأخذوا المال ، فلن يكتفوا بفرقعة السوط .

واتجه أبى إلى باب الورشة التى يصنع فيها الصهاريج ويطرق النحاس وشرع فى إغلاقها .

٢

هاهو خضاب الدم يزين جسدى ، وعيناى تريان شجرة الزيتون التى يشفى زيتها كل الجراح . أمى تصنع الدهان من الزيت وتذهب إلى بيت شوكت الأنصارى تدهن أمه وتداويها من آلام المفاصل . ويركب شوكت فرسه الأشهب من حوله شراكسته المسلحون ، سمين مترهل ، عجوز فى الخمسين يضحك كثيرا ، قامته قصيرة ، بشرته بيضاء ، لحيته قصيرة يشذبها بعناية . شوكت وتد من أوتاد الأرض برجاله وماله وسلاحه . شراكسته لا يعرفون العربية ، يجلسون بيننا فى المقهى فترقبهم العيون فى صمت ، لكنه صمت ساخر خائف . هاهم يقتربون من دارنا ومعهم مختار العجوز ، جاء ليحمى أبى ، وليفرض عليه أن يقبل زواجه من شقيقتى سعاد . أبى يفهم ولا يريد أن يفهم . وعليه أن يدفع المال قبل فوات الأجل الذى حدده مختار أو يقتحم شراكسة الأنصارى الدار وينهبونها كما نهبوا دار "أبو القاسم" . قالت أمى إننا نعرف أسرار الدهون وهى تدهن بها جلود سيدات بيت الأنصارى ولقد استطاع جد من أجداد أمى أن يشفى الجد الأكبر لشوكت الأنصارى بدهان من شجرة الزيتون ومنذ ذلك الوقت أصبح من حق أسرتنا أن تجنى ما تريد من الزيتون لتصنع منه الدواء الشافى وأصبح من حقنا أن نرعى حول هذه الشجرة . وهذا ساعدنا على تربية الماعز والخراف رغم اننا أسرة لها حرفة غير الزراعة ، وهاهى شقيقتى سعاد رقيقة حالمة أخرج معها وأجرى هائما فى الحقول وأبى يضحك وصوته يدوى فى أرجاء الأرض : الولد سوف يكون له شأن . هل هذا الدم الذى يسيل من جسدى هو هذا الشأن ، وشقيقاى الكبيران مروان وحسان يسخران منى ، أنا الطفل المدلل آخر العنقود . وأبى يربت على ظهرى بحنان . من أدراكم أن أحمد هو آخر العنقود . سأجلب إلى ظهر هذه الدنيا عشرة آخرين . ويهتف مروان رحماك ربى وهل تستطيع أمى أن تتحمل هذا العناء . وأبى يقهقه ، وقهقهته

تجلجل أسمع أصداءها تتناقلها الروابى وتنطلق حتى عنان السماء . أمك تستريح وهى سيدة بيتها ولن أكلفها أية مشقة . أستطيع أن أجلب أمرأة قوية تلد العيال .

ويبتسم مروان . طال عمرك ياأبى ألا تكفيك همومنا ؟ ويهز رأسه متروبا ويردد : حقا إن همومكم ثقيلة . ولكن ما الذ النساء وليس أجمل ولا أطيب من جسد امرأة ولادة .

كان لا يعلم ولا أنا أعلم أن سارة لها جسد لذيذ ولا يلد الأولاد . لم تخف من الحمل ولم تتوقعه ، ولم تحتط لتتجنبه .

ما كان أبى يرضى بها ، فهى ليست له . ولكنها كانت لى يوما ما .

ماذا تريدين ياسارة ؟

تبتسم ابتسامة شاحبة ، وتهمس :

ـ أنت تسألنى عن الرجل الذى أريده ، لأقول لك أنه أنت ، ولكن صدقنى ، ليس هذا وقت التفكير فى الاجابة على مثل هذا السؤال ، الذى بيننا لحظات تعارف .

ـ وماذا بعد ياسارة ؟

تهمس :

ـ أنت كثير الاسئلة .

أقول لها :

ـ لابد أن أسأل .

تهمس :

ـ ليتك تعرف الإجابات .

كنت أجلس مع سعاد تحت شجرة الزيتون .

ـ ما الذى تريدينه ياسعاد ؟

تبتسم :

ـ أريده بساما لا يتجهم ولا يتكدر .

وتنظر إلىّ بعينين فاحصتين ثم تقول :

ـ لا أريده ضعيفا أريده قويا يأمر فأطيع .

أشاكسها فأسأل متخابثا :

ـ تريدينه قويا مثل مختار العجوز .

فتهجم على تدفعنى بيديها :

ـ أريده قويا مثل أبى ، أما مختار هذا فهو ضعيف . إنه خادم عند شوكت الأنصارى ، وما يدعيه من قوة أمام الناس يتحول إلى جبن وذلّ أمام سيده . إنه كثير الكلام يبدى ويعيد .

وأقاطعها :

ـ ولكن أبى زير نساء ، يحب زيارتهن لأمى ، ويتبعهن بنظراته فى الطرقات ، ويسأل عنهن ويعرف كيف يصادقهن . نساؤه وخادماته وزوجات أولاده يتعاملن معه فى حب وطاعة . ولكن ليست هناك واحدة تستأثر به .

صاحت سعاد :

ـ ولو ، هذا هو الرجل . وانت تحسده وتتمنى لو كان لك بعض ماله من النساء .

أعرفت سارة وأنا اتخيل نفسى أبى ، اتقمص روحه ، واتظاهر بثقته واطمئنانه إلى الفوز بقلب المرأة فى كل وقت . لكن الذى حدث بينى وبين سارة علمنى أنى لست أبى وغمرنى إحساس بالمهانة أكبر من أن أطيقه . وكنت أقعد كالمغمى على لا أدرى ماذا أقول أو ماذا أفعل ، وتنقضى الساعات الطوال ، وأنا لا أتحرك . وجاء أبى يوما فصب ـ وأنا لا أدرى ـ ماء على رأسى ، وافقت وانتفضت فزعا ، وكان يصرخ محتدا :

ـ ماذا دهاك ياولد . مالك ذاهل حزين . أرى دموعا جامدة تضر عينيك ، هل انت متيم تعانى من غرام امرأة . هأنذا أراها مختفية تحت جلدك .. خبرنى من هى

خيل إلى أن قلبى يتفسأ ، وجلدى يتمزق وقد انتشرت فيه شقوق تؤلمنى ، ولكن سارة أليهودية تظهر من بين هذه الشقوق ، يراها أبى يعرف

انها هى التى قتلت روحى وأهاجت أحزانى . وإذا أبى يحتضننى . ويضمنى إلى صدره بذراعين قويتين وقد أدرك أن الآلام قد اشتدت بى وتعصف بأضلعى المفتوحة وتنفذ من شقوق جسدى المعذب ، وسمعت أبى يسألنى فى جزع :

- أهى يهودية ؟

أجبت :

- نعم .

ما كنت أستطيع أن أخفى سرى ، وما كنت أعرف ما الذى ألم بى فى تلك اللحظة . وهتف أبى :

- الويل لنا .. الويل لى ولك .

ورأيته ينظر فى عينى ، وقد اشتدت قبضة يديه وقال فى لهفة

- لن تأخذك منى .

وصمت أبى برهة ، قبل أن يسأل كمن يعرف مقدما الجواب

- سارة ابنة شالوم .

همست :

- نعم .

عاد يسألنى وهو واثق تماما من الإجابة التى سيسمعها :

- شقيقة داود .

أطرقت برأسى . ولم أجب . ما فائدة الإجابة :

همس أبى :

- ولكنها ذهبت معهم .

قلت :

- نعم .

فأشار بيده فى اتجاه تلك المستعمرة التى كانت ضيعة شوكت الأنصارى فى غابر الأزمان وقال :

ـ من يذهب هناك . لا يعود .. وإذا عاد يحمل معه السلاح ولا يتعامل معنا إلا بالرصاص . وليس هناك خداع فى الأمر ، فقد اقاموا الأسوار ومدوا الأسلاك الشائكة . ما كنت فى حاجة إلى حديث الأسوار والأسلاك . فأنا أعرف أن سارة ذهبت وراء تلك الأسوار بعد أن رفضت الذهب والحرير ، ومازالت ابتسامة عينيها وحمرة خديها تلتهب فى صدرى ، ولا حيلة لى فى الأمر . فهى الوهج الوحيد الذى بقى لى كذكرى ، أراها تتهادى وهى تجرى ، وأراها عطوفة ناعمة وهى مسلحة بالقنابل ومدججة بالسلاح ، وأراها طيبة حنونا وهى مربية خادعة تعيش مع أوغاد يسوسونها ، وأنا لا أدرى الإجابات التى كانت تسألنى عنها فيفضحنى عجزى عن الإجابة .. هاهى بين من يريدون بها أشياء ما كانت تعرفها أو تريدها . كيف تحول هذا الجسد الدافىء اللين الأعطاف إلى هذا المسخ القاتل . هل هى صاحبة تلك الرصاصة التى تخضب جسدى بالدم . لن يلبث هؤلاء الأوغاد أن يصدعوا كيانى كله ، وبينما توهمت أن هجرها شفانى وصدودها رد لى كرامتى ، إذا بها تنحرنى وهأنذا أركب أصعب الأمور . أرى العيون الغادرة من حولى . وأبحث عن عيوننا العربية . أين عيناك ياأبى . كنت تقول مفاخرا إننا شباب لم تلد مثلهم أم منجبة . شجعان لا يخدعهم أحد ، لا يسقطون فى شراك الهم ولا يهابون المخاطر ، يحملون الأعباء ، وينهضون بالمسئولية ، ولهم الرأى تعتد به وتعتمد عليه . وأنت ياأبى كنت أراك بيننا عظيما مهابا لك دار وفناء به فرس يصهل وبغل أمين . ولك زوار يروون القصص والأشعار . وأسمعك تقول عن اليهود . ظهر النكد بعد الطرب . وتنشد كلما قامت ثورة فى القدس وسقط الشباب . رزئت بأعضادى الذين بأيديهم أقوى وأحمى حوزتى وأحتمى . فإن لم تذب نفسى عليهم صبابة فسوف أشوف دمعها بعد الدم . هل جلبت عليك النكد عندما بحثت عند سارة على الطرب . لقد أردت أن اتزوجها ، وما أشد سذاجتى عندما ذهبت أسأل سعاد مرة أخرى ، حدثينى ياسعاد من هو الزوج الذى يعجب المرأة ؟

قالت :

ـ ماذا دهاك .. اتريد أن تتزوجها ؟

وصمت ، ثم ضحكت خائفا :

ـ هذا سر بيننا ياسعاد .

قالت :

ـ مثلها تريد الذى يأخذها كما هى .

سألت بلهفة :

ـ ماذا تعنين كما هى ؟

قالت :

ـ بمحاسنها وعيوبها . يرضى بحقها كما رضى بباطلها .

قلت لها :

ـ لا أحد يرضى بالباطل .

فأعترضت :

ـ القوى يرضى لأنه يعرف الرحمة والمودة . أما الضعيف فلا يرضى وهذا هو النذل وهو لا يجلب سوى الشقاء والعار .

كانت تريد أن أرحمها ، لأنى قوى ، ولأنها ضعيفة . ولكنى بحثت عنها ، وحاولت أن اراها ، أن أصل إليها والتقى بها ، لأرحمها ، ولكن الذين جاءوا اقاموا الأسوار والقلاع وأخفوها عنى . كنت أريدها ، أريد أن أعيش معها ، بحقها وباطلها . بمحاسنها وعيوبها . أليس هذا هو ما يحدث بين أبى وأمى . إنهما يتشاجران بين حين وحين ، وتشتمه أمى . يكفيك أن تشبع لتهملنى وإذا اقتربت من فراشى بدا عليك الخوف . فيشتمها . ويقول لها إن ساقيها دقيقتان ، وأنها تطلب منه أن ينفق المال بينما أهلها ركبهم البخل ولا ينفقون درهماً .. وكان أبى يشكو أنه لم يعد يستريح فى هذه الدار ، وأن الدنيا تذهب بلذائذها ، ولكنه يعود فى ساعات صفاء ويقول إن أيامه الآن أحسن من الماضى . كل هذا قد طواه الحاضر الذى كان مازال فى عالم الغيب ، ولا أدرى إن كان فى إمكاننا أن ندرأ ما حدث ، لو أننا اخترنا سلوكاً أخر . إم ان الله شاء أن نصل إلى معرفته ونحصل على رضاه عن طريق وعر ومشقة وأتراح بعد أفراح .

ولكن أية مشقة وأية أتراح . والدم يخضبنى ، وهناك حيث لا أستطيع أن أنهض وأذهب ، يحاصر الهلاك كل من عاشوا وصنعوا حياتى وهذه الذكريات . ولن يحميهم شراكسة ، ولن يجدوا شوكت الأنصارى يدافع عنهم راكبا فرسه الأشهب وخلفه كوكبة زاهية الألوان من حرسه يختالون فى طرقات قريتنا ويثيرون الغبار والرهبة بينما يقف الرجال فى المقهى

وأمام الحوانيت ، وأمام الدور ، لتحية السيد الكبير صاحب الكلمة والأمر والنهى ومن خلفه مختار العجوز يسير فى ركابه ويمتثل لأوامره واحدا من ستين مختارا فى فلسطين يذهب إلى القدس ويقابل فخرى بك النشاشيبى سكرتير اللجنة الفرعية للمختارين ، ويعود إلينا بأخبار القانون الجديد الذى كان يخاف أبى وأصحابه من تطبيقه . كل هذا قد احترق فى نيران الحاضر الذى كان فى الغيب . ولكن غيب يذهب وغيب يجىء وماض يذهب وحاضر يجىء . وهاهو مختار العجوز يحك شعيرات بيضاء نابتة فى ذقنه مودعا أبى فى انتظار اجابته التى يثق فى أنها ستكون قبولا لزواج سعاد زوجة ثالثة له . وفى المساء كان أحد الرجال يصيح فى دارنا مخاطبا أبى . لماذا لا تذهب إلى شوكت الأنصارى وتطلب منه المال . فهز أبى رأسه قائلا :

ـ سمعت أن الرجل مسافر إلى أوروبا بعد يومين وقد يعتذر لهذا السبب عن مقابلتى أو إقراضى المال .

صاح الرجل :

ـ المال الذى يلعب به القمار فى مونت كارلو .. هذا هو ما يفعله شوكت الأنصارى كل عام . ولو قدم لك جزءا يسيرا مما ينفقه فى ليلة واحدة لأنقذت معملك وتخلصت من بطش رجال الحكومة وضغوط مختار العجوز .

وثارت أصوات كثيرة . الأنصارى هو المسئول عن هذا الذى يحدث وهو قادر على أن يمنع عنك دفع المال أو يدفعه هو . وجاء الصباح واستعد أبى للخروج إلى ضيعة الأنصارى ، وكانت أمى واثقة أنه سوف يعود مظفرا ، وكانت سعاد تبتهل وتدعو فى سرها أن ينقذها الله من هذا البلاء الذى جاء فى صورة مختار العجوز . الخادم الذى يتظاهر بأنه من الأسياد .. وكنت أفرك عينى عندما رأيت أبى يبتسم . كان ينظر إلى من عل ، وسمعته يقول لأمى . سوف يأتى معى أحمد لأنى اتفاءل به ، وصعدت لأركب امامه على البغل وأستقر فى حضنه بين ذراعيه . كم أحن إلى هاتين الذراعين يخيل إلىّ أن جسدى سوف يجدهما عندما يكمل سقوطه على الأرض . وعندما يلتصق بالتراب . ويمتزج دمى به . فلابد عندئذ من حدوث معجزة ، اتوقعها ، لأن هذا الصفاء الذى يخيم من حولى يوشك أن ينبىء أن المعجزة قادمة .

٣

يا إلهى الأعداء من حولى ، يا إلهى دمائى تنزف ولا أحد يقترب لنجدتى ، أين ذهب الطبيب النرويجى وعربة الصليب الأحمر التى حملتنا إلى هنا ، كأنى أحلم بطبيب وعربة إسعاف ، أما الواقع فليس فيه سوى أعداء لا أكاد أراهم بينما ينفتح أمامى هذا السرداب الطويل المعتم يدعونى إليه .

نعم إنى أذكر هذا السرداب . وهأنذا فى طريقى إليه فى صباح ذلك اليوم الذى ذهبت فيه مع أبى إلى بيت شوكت الأنصارى ، انطلقنا فى طريق على يميننا تلك البركة الكبيرة التى تتجمع فيها مياه الأمطار ، يقولون : إن مياهها طاهرة تهبط من السماء ، مياهها ربانية لم يمسسها بشر ، فيتوضأ بمائها اليهود يأتون من أطراف القدس ، بعضهم لهم لحى طويلة ، ملابسهم سوداء وعلى رءوسهم طواقى سوداء ، كانوا يتطهرون بماء البركة ، كما يقول أبى ، من النجاسة . وكانت النساء يخرجن من قريتنا بالخضراوات والفاكهة والبيض والدجاج يبعن لليهود بأسعار أقل بكثير من أسعار القدس .. كانت بعض الفتيات قد وصلن بأقفاصهن وجلسن عند حافة البركة ، وحركة البيع والشراء توشك أن تنشط ونحن نجتاز السوق ونقبل على شجرة الزيتون المنفردة حيث كانت شقيقتى سعاد قد سبقتنا بالغنم ، ورأينا مختار العجوز راكباً فرسه قادماً نحونا ، لابد أنه كان يحوم حول سعاد ، ولكنه قال إنه قادم من عند شوكت الأنصارى ، قال له أبى : إنه ذاهب لمقابلة الرجل ، فبدا على وجه مختار دهشة لا تخلو من غضب ، فقد أرتفع صوته صائحاً بأبى :

ـ لن يقابلك .. انت لا تدرى ماذا به ؟!

سأل أبى :

ـ وماذا به .. هأنذا أسألك ..؟

فعاد مختار يكرر :

ـ إنه لن يقابلك .. اتركه فى همومه ..

ثم تحدث عن مهمة سوف يقضيها فى القدس .: وقال : إن شوكت الأنصارى قد أرسله نيابة عنه ليحضر حفلاً سوف يقام فى فندق الملك داود حيث يجتمع المشايخ للغداء مع رجل يهودى مهم اسمه الدكتور ويزمان جاء ليتعرف على رجال البلد .

فسأله أبى . ومن الذين سوف يقابلون الرجل اليهودى .. فقال مختار العجوز إنهم كثيرون بينهم متقال باشا شيخ قبائل بنى صخر ، ورافع باشا ورشيد باشا والشيخ عجلون وسليم باشا وسعد الدين زعيم الشركس وزريقات باشا نيابة عن المسيحيين .

فسأله أبى :

ـ وماذا ستقول يامختار لليهود ؟

قال مختار باسماً :

ـ سأقول لهم نحن نريد التعاون معكم لتحسين أحوال البلاد .

فصاح أبى :

ـ تقولون لهم على الغداء نريد أن نتعاون ، وتقولون للناس فى المساء وقبل أن تهضموا طعام الغداء إنكم ضحايا الغدر اليهودى والانجليزى .

فابتسم مختار العجوز .. وقال لأبى :

ـ أنت لا تعرف السياسة ياأبا مروان .. إننا بعد الغداء سوف نجتمع بعزمى أفندى النشاشيبى فى اجتماع اللجنة التنفيذية العربية وتوجه انذاراً لجميع المتظاهرين . نحن نريد الهدوء الآن لمصلحة الجميع ..

وركب فرسه وانطلق مبتعداً ، وأبى يتمتم بكلمات غاضبة ، وصدره يرتجف فأشعر به وأنا بين أحضانه فتسرى الرجفة فى صدرى ، وكلمات مختار العجوز مازالت ترن فى أعماقى ، لا أفهمها ، ولكنها تدمغنى ، كما لو كانت يداً تحفرها فى صدرى .. بكلماتها عن الشيوخ والباشوات واللجنة التنفيذية ، وويزمان ، ولكن هاهى سعاد هناك بين الغنم . فلما اقتربنا منها انطلق صوت أبى هادراً ؟

ـ يابنت .. عودى إلى الدار .

كان يطلق غضبته التى أشعلها مختار العجوز ، بعد أن سمع منه أن رحلة كهذه لا فائدة من ورائها ، كان وجهه قلقاً ، ولم أعرف ما الذى يدعوه إلى أن يصدر أمره إلى سعاد بالعودة فوراً إلى الدار ، ولم أجرؤ على سؤاله فقد خشيت أن يدفعه غضبه إلى ايذائى لو نبهته إلى وجودى بكلمة .. كانت حواسى متيقظة ، وكلمات مختار العجوز تدور بسرعة محمومة فى رأسى أحاول أن أجد لها تفسيراً ، وبعد برهة قال أبى فى ضيق وكأنه يخاطب نفسه :

ـ لو رفض شوكت الأنصارى مساعدتى فسأشتمه .. إنه يرسل رجاله ليتناولوا الطعام مع اليهود ويطلبون التعاون معهم ، فلماذا يرفض أن يتعاون معى .. وهذا الكلب مختار لا يريد أن يساعدنى شوكت الأنصارى بماله حتى أخضع له وافتدى نفسى بالبنت .

كان أبى يستعد لصراع حول النقود ، ولكز البغل يستحثه على الاسراع وقد أقبلنا على أشجار البرتقال يشقها ممشى يفضى إلى بيت الأنصارى . وظهر لنا أكثر من حارس شركسى يتفحصنا ، وكان أبى يقرئهم السلام فيردون عليه بتمتمة وصوت أجش ، حتى وصلنا إلى بوابة الدار ، باب ضخم خشبى أوقفنا عنده حارس شركسى ، وترجل أبى عن البغل وقال للحارس إنه جاء يطلب مقابلة سيد الدار . فنظر إليه الحارس طويلاً ، ثم نظر إلى متردداً وأوشك أن يقول شيئاً ، ثم عدل عن الكلام واستدار وعبر عتبة الباب من فتحة صغيرة يبدو منها فناء كبير واختفى .

وظل أبى صامتاً ، وكنا نسمع صوت ارتطام شىء بالأرض ، وكان الصوت يبدو كما لو كان تحتنا ، أو شديد القرب منا ، ولكننا لا نرى مصدره ، ولم يقل أبى شيئاً ، كان ينقل بصره بين البغل والبوابة الكبيرة والباب الصغير الذى دلف منه الحارس واختفى دون أن ينبس بكلمة . هل يتجاهلنا وكأنه لم يسمعنا ، بل كأنه لم يرنا ولا يعترف بوجودنا ، أم دخل يسأل فى أمرنا وسوف يعود بجواب . كان أبى يوجه نظراته إلى شجرات البرتقال عندما جريت خطوات فى الممشى بينها ، ثم عدت إلى البوابة واقتربت من الباب الصغير واختلست النظر إلى الفناء . كانت به نافورة وفى ركن بعيد ، رأيت جملين يبركان على الأرض بلا حراك ، وعجبت لاستناختهما فى هذا المكان ، وخيل إلى أن الأرض تهتز تحت قدمى من

صوت ارتطام يتكرر ، وخطوت بحذر داخل الفناء ، ولكنى لمحت الشركسى قادماً من نهاية الفناء فعدت مسرعاً إلى أبى وتشبثت بملابسه أحتمى به من الشركسى الذى قد يعنف بى لدخولى الفناء بغير إذن منه .. وسمعت الرجل يقول لأبى :

- انتظر فهو خارج بعد قليل وسيراك اثناء خروجه ..

واستمع أبى إلى كلام الرجل فى صمت ، وتقدم من الباب ليجتازه إلى الداخل ، وإذا بالشركسى يحتجزه ، فصاح أبى :

- لن انتظره واقفاً هنا ، انا أبو مروان وشوكت الأنصارى يعرفنى وجدوده تعرف جدودى ..

ولم يهتز الشركسى ، وبدا بارداً سميكاً لا يتأثر ولا ينفعل بما يسمعه ، وقال بصوت جاف :

- لا مكان لأحد فى الفناء الآن . انتظر هنا وسأحضر لك مقعداً تجلس عليه .

ولم يذكر شيئاً عنى ورأيته يدخل الفناء ويتجه إلى عدة أبواب متشابهة فى الناحية الأخرى التى لا يبرك فيها الجملان ، واختفى وراء أحد الأبواب ، ولم أستطع مقاومة الدخول إلى الفناء ، ولم يمنعنى أبى ، وتقدمت خطوات فرأيت عن يمينى باباً مواربا ، وسمعت صوت الارتطام يأتى واضحاً من خلفه . نظرت من فتحة الباب المواربة ، فرأيت دهليزاً ومرقت من الباب ، وسرت فى الدهليز ، ولم يعترض أبى ، فلم أسمع صوته ينادينى ، وسرت فى الدهليز ، وكلما تقدمت زادت العتمة فتعوق حركتى ، ثم اشتدت لولا بصيص من الضوء فى نهاية الدهليز ، وكان واضحاً الآن أن صوت الارتطام قادم من نهاية الدهليز ، وتقدمت بحذر تدفعنى قوة لا أدرى كيف أنبعثت فى نفسى ، أهى من الغضبة التى سرت إلى من صدر أبى وهو يتحدث مع مختار العجوز ، أم هى من تجاهل ذلك الشركسى لشأنى وذهابه ليحضر مقعداً يجلس عليه أبى ، دون أن يكترث بأمرى ، كانت خطواتى متلصصة ، ويداى تتحسسان الجدار على جانبى الدهليز ، حتى وصلت إلى فتحة فى الجدار عن يسارى ورأيت سلالم تهبط وصوت الارتطام قادم من تحت ، وهبطت عدة درجات بلغت نهايتها عند سرداب معتم ، تفوح منه رائحة رطوبة وعفن ، وفى نهايته حجرة واسعة ينتشر فيها

ضوء النهار ، وعجبت من هذا ، وأدركت أنى لو مضيت فى السير فسأخرج مرة أخرى إلى الفناء ، وتأكد ظنى عندما تقدمت بضع خطوات ثم توقفت عندما رأيت فى أعلى الحجرة رأس الجمل البارك ، لا أستطيع أن أصعد من هنا ، وإلا القيت بنفسى بين الجملين .. ولكن صوت الارتطام أصبح عنيفاً ، ولابد أن أعرف ماذا يحدث ، تقدمت خطوتين فبدا لى جانب من الحجرة الواسعة ، إنها قاعة كبيرة . وظهرت لى أكوام من الحجارة ، ورجال يأتون فيحملونها ، وتقدمت لأرى أكثر ، فرأيت لعجبى صناديق كبيرة من الخشب المزركش ، وكان الشراكسة يحملون الحجارة ويلقون بها فى الصناديق التى توشك أن تمتلىء بحملها الثقيل ، ما الذى يدفع هؤلاء الرجال إلى وضع الحجارة فى هذه الصناديق التى تحمل عادة أنفس البضائع ، وانسحبت قبل أن ينتبه أحد إلى وجودى وعدت أدراجى مسرعاً إلى الفناء وجريت إلى أبى ، وقبل أن التقط انفاسى لأحكى له ما رأيته كان شوكت الأنصارى قد خرج الى الفناء ، وفرس مطهم معد لركوبه ، وقال له أبى إنه جاء يطلب مساعدته ، فالمال المطلوب منه للحكومة ليس فى حوزته ، ويستطيع الرجل أن يمنع عنه رجال الحكومة ، فقال له شوكت بعجرفة : إنه لم يعد قادراً على مساعدة أحد ، وتلفت حوله بعصبية ، وقال إنه أيضا عليه أن يدفع الضرائب . قال له أبى :

ـ أنت ياشوكت ياأنصارى ياأبا هشام كبير وسيد ولن تخذل أحداً يطلب عونك .

فإذا شوكت يحمر وجهه وتبرق عيناه ويصيح :

ـ سوف أترك لكم كل شىء ، هذه الضيعة سوف يتسلمها بعد يومين مالكها الجديد :

وفوجىء أبى بما سمعه . وقال لشوكت وهو غير مصدق :

ـ أنت لن تبيع أرض أجدادك .

فصاح الرجل مهتاجاً :

ـ ليست هذه أرض أجدادى .. أرض أجدادى فى أورفه ولن أرتبط بكم هنا إلى الأبد .

صاح أبى :

ـ ولو .. أنت لن تفعل هذا .. ولا أصدقك .. فأنت تتهرب من مساعدتى .. ولست أريد منك شيئاً بعد ما سمعته ..

فقال شوكت محتداً :

ـ أنا لا أكذب ياأبا مروان .. أما المال فسوف أدلك كيف تحصل عليه .. فالمالك الجديد يريد منك أشياء كثيرة .. يريد صهاريج جديدة للماء .. وعليك أن تذهب إلى شالوم الساعاتى .. وأنت تعرفه فكل ساعات القرية من دكانه .. وسوف يتفق معك على كل شىء .. ويعطيك من المال أكثر مما كنت تحلم به .

وانطلق شوكت بفرسه ، تاركاً أبى غير مصدق لما سمعه ..

وفى المساء اجتمع الرجال مع أبى وقد تعجبوا للخبر ، فلم يسمع أحد به من قبل ورفضوا تصديقه ، وتحدثوا عن أسفار شوكت إلى فرنسا ، وكيف يلعب القمار بشراهة وجنون ، وهز أحد الرجال رأسه قائلاً سوف يبيع أملاكه ليلعب بها القمار ، وتكلموا عن الأراضى المرهونة للبنك العقارى والأقساط المستحقة . وتطايرت فى الحجرة تلك الأسماء التى كان يرددها مختار العجوز عندما قابلناه فى الصباح . عزمى أفندى النشاشيبى .. الشيخ عجلون .. متقال باشا .. زريقات باشا .. وكانت الأسماء تدوى فى رأسى وتعيد حفر نفسها فى أعماقى ، أسماء رهيبة ، مهيبة تملك مفاتيح الفرج والخلاص ، وكان أحياناً يرتفع صوت يعلن فى حماس أن كاظم باشا الحسينى هو الذى يعرف كيف يتحدث مع الانجليز فيقول له آخر الشيخ سليمان الفاروقى أصلح منه فهو وأمين التميمى وقفا كاسدين فى حادث البراق حيث يريد اليهود احتكار الحائط الذى عرج منه الرسول ﷺ إلى السماء ليلة الإسراء ليبكوا عليه مجد سليمان ، وصرخ أحد الحاضرين :

ـ شنقوا ثلاثة فى سجن عكا ..

فيهز أبى رأسه ويقول :

ـ إنهم قرروا الصلح واجتمع المشايخ مع كبير اليهود اليوم على الغداء .

فسأله الرجل الذى كان يصرخ :

- أتصدقهم ياأبا مروان .

فقال أبى بصوت مهموم :

- من يدرى فقد ينصلح الحال .

وهنا سمعت من يقول إنه واثق أن ساعة الخلاص قد اقتربت .. فذهاب شوكت الأنصارى يعنى أيضاً ذهاب الشراكسة ، سوف تنكسر شوكة هؤلاء الكلاب الذين تجبروا وطغوا بعد أن يذهب سيدهم . وساد صمت ، عندما ارتفع أكثر من صوت يتساءل "ترى من يكون المالك الجديد ؟" ، ولكن أبى قال بصوت خفيض كأنه يخاطب نفسه ، إنه يهودى ليس فى هذا شك ، فالرجل أرسل يطلب صهاريج جديدة عن طريق شالوم الساعاتى ! وعاد الرجال إلى الصمت برهة . وارتفع صوت حزين يقول : لا تتعجلوا الأمور ، فقد يكون المالك عربياً أقرضه شالوم المال ، وانتعشت الآمال من جديد ، وعادوا يناقشون احتمال استمرار وجود الشراكسة ، وكان بينهم من يرى أن مالك يهودى يخلص القرية من الشراكسة وجبروتهم ، أفضل من مالك عربى يحتفظ بالشراكسة .. وهنا قال أبى فجأة :

- سوف أعرف غداً الخبر اليقين لأنى سأذهب إلى القدس وأرى شالوم .

عندما خرج الناس من دارنا كنت نائماً ، ولكنى استيقظت وتركت مرقدى على الحصير ، وخرجت إلى الفناء ، وهناك رأيت أبى ، كان شبحه فى الظلام مهيباً .. وكان الليل شاحباً وضوء ضعيف لقمر لم يكتمل لا يستر ضوء النجوم البعيدة ، كان أبى واقفاً ، لا أدرى لماذا .. وقد خيل إلى أول الأمر إنه واقف فى صلاة ، ولكن وقفته الجامدة طالت ، واقتربت منه ، فظل واجماً صامتاً ، وكانت خطواتى كلما اقتربت تتثاقل ، وقلبى يدق بشدة ، بينما تسمع أذنى الدقات لارتطام الحجارة فى ذلك السرداب ببيت الأنصارى ، وهى تتكدس فى الصناديق المزركشة ، وقلت لأبى والكلمات مندفعة من فمى بلا تفكير .

- رأيتهم فى بيت الأنصارى يضعون الحجارة فى الصناديق .

فسألنى بصوت حاد :

- ماذا تقول ؟

قلت :

- رأيتهم بعينى .. كان الشراكسة يلقون بالحجارة فى صناديق مزركشة .

فسألنى باهتمام :

- هل رأيتهم بعينيك .

قلت :

- نعم .

قال بصوت قوى غريب :

- الآن فهمت .

وتنهد ثم قال :

- لا حول ولا قوة إلا بالله .

وسألته :

- لماذا يفعلون ذلك ياأبى .

فشخط فى وأمرنى أن أعود من فورى إلى مرقدى وأنام .

٤

الهدوء يخيم على الأرض ، يهبط عليها من السماء ويحتوينى وأنا صاعد فى الطريق . ترى أى طريق هذا . نعم إنى أعرفه إنه الطريق إلى القدس ، وهاهى البنايات قد ارتفعت بحجارتها البيضاء فى الأفق العالى عند السحاب .

هذه البنايات غسلتها سواعد جبارة طاهرة والسحاب كرغاوى صابون . والصباح طازج يافع يدعونى إلى الحياة وعندما وصلنا إلى السوق .. كان الطريق عند مدخله مشغولا بعمال يغلون القطران لرصف الشارع . ترى كم سنة سوف تمضى قبل أن أرى سارة وهى ترصف الرصيف عند هذا المدخل للزقاق الذى على ناصيته دكان النجار ثم دكان يوسف رودريجز الذى يبيع كل ماله صلة بالكهرباء . خال سارة وداود صاحب الصوت المعدنى الذى نصحنى ألا اقترب من هذا المكان . ولكن كل هذا سوف يجىء فى زمانه ، والطريق لم يمهد بعد لكثير من الأحداث . فمازال أطفال شبه عراة يتصايحون ويجرون خلف بعضهم . وأنا وأبى نسير بجوار حائط المعبد اليهودى ، حتى وصلنا إلى دكان شالوم . استقبل الرجل أبى بترحاب ، وامتدت يده تربت على رأسى ، وكانت له ابتسامة عذبة تفيض من عينيه كما تفيض من شفتيه ، صوت مرتعش كما لو كان يقاوم إحساسا بالألم ، وكان قلقا خشية أن تمتد يدى إلى ساعة فأكسرها وأنا أحوم فى الدكان الصغير . وسمعته ينادى على داود . الذى ظهر من خلف ستارة . ولد فى مثل عمرى فى الثامنة أو التاسعة . وقال له شالوم : خذ معك أحمد إلى أمك . وقدم له حلوى وقل لأمك أن تصنع لنا قهوة .. كان داود لطيفا . واستمع فى أدب لكلمات أبيه ولكنه لم ينفذها قبل أن يطوف بى على فترينات الساعات ، وكان ديك خزفى قد خرج من ساعة كبيرة يطلق صيحات معدنية ، وبندولات تتحرك يمينا ويسارا فى دواليب زجاجية ، كل الساعات تدق والعقارب تتحرك وداود ينظر باهتمام إلى الساعات وكأنه

يعرفها ، بينه وبينها أسرار . وكنت أريد أن اتلكأ لأسمع حديث أبى . وأعرف هل يحصل على النقود التى جاء من أجلها وكان شالوم يحدثه عن صهاريج وفناطيس مطلوبة لضيعة الأنصارى . وسأله أبى من الذى أشترى الضيعة . قال شالوم إن رجلا قادما من ألمانيا هو وزوجته وابنته . وأنه عالم وقور . كان أستاذا كبيرا فى الجامعة . وسوف يستفيد منه جميع أهل القرية ويتباهون بوجوده بينهم . وسمعت أبى يسأل بصوت غلبه الانفعال : متى يريد الرجل الصهاريج ؟

قال شالوم ضاحكا :

ـ اليوم قبل الغد ياحبيبى .

قال أبى :

ـ ولكننا لم نتفق بعد .

قال شالوم :

ـ نحن متفقان .. ولن نختلف .. سوف تحصل على ما تطلبه .. هل تريد ان أقدم لك بعض المال الآن ؟

كنت أريد أن أرقص ، اقفز فى الهواء .. أفعل أى شىء يخطر ببالى . هاهو شالوم يعرض على أبى النقود . وصاح شالوم فى داود .. ماذا تنتظر كان داود يفحص الباب الذى خرج منه الديك ، فقد دخل الديك ولم ينغلق الباب وصاح شالوم ـ خد ضيفك إلى الداخل . وأحضر لنا القهوة .. وجذبنى داود من يدى إلى الستارة بجوار المكتب الذى يجلس إليه شالوم . ودلف بى إلى ممر يفضى إلى فناء به شجيرة صغيرة ، وتخطينا الفناء إلى باب دخلنا منه إلى حجرة واسعة . ورأيت سيدة سمينة ، لها وجه أبيض مستدير يحيط به شعر أحمر متوهج . وكان على وجهها أصباغ ومساحيق مثل تلك التى تحاول شقيقتى سعاد أن تجربها على وجهها فتنهرها أمى خشية أن يراها أبى ، وتثير ضحكاتى . مضت لحظات قبل أن أدرك حدود هذه الكتلة البيضاء من اللحم واتبين أنها تجلس على أريكة كانت تغطيها بجسدها وكانت تنظر إلى بعينين واسعتين فاحصتين جذابتين . فقد شعرت برغبة فى أن أحدق فى عينيها وأن أتوه معهما لا أدرى أين ؟ عيناها خضراوان كعينى قطة رومية . ولم أشعر وأنا فى عينيها أنها كبيرة . بل

كأنها طفلة مثلى . وكان أمامها أو على حجرها صحن عليه ملبن مرشوش بالسكر . كانت تأكل منه والسكر مازال لاصقا على جزء من شفتها السفلى . وكانت تلحسه بلسانها . وهى ترقبنى بحذر طفلة أو فضولها . وسألتنى عن اسمى . كان صوتها رفيعا حادا واضحا آمراً ، ولكنه لا يفزع ولا يخيف ، بل شعرت على نحو ما أن صوتها فيه هذا الإحساس بالألم الذى بدا فى صوت زوجها شالوم . وأحسست أنها طيبة ، وقبل أن اتحقق من هذا الشعور الذى خالجنى . وفى تلك اللحظات الأولى من اللقاء وأنا اتحسس مشاعرى نحو هؤلاء الغرباء ، مدت يدها إلى قطعة ملبن وقسمتها بيدها نصفين وأعطت لى نصفا وأعطت لداود النصف الثانى ، ولحست السكر الذى علق بأصابعها بلسانها . وكان داود قد أبلغها أن أباه طلب القهوة لأبى فتجاهلت ما سمعته وسألتنى عن سنى ، قلت لها إنى فى العاشرة وكنت لم أبلغها بعد . فقالت مثل داود ، وسألتنى إذا كنت أذهب إلى المدرسة . فقلت لها باعتزاز وقد تشجعت بمذاق الملبن ، إنى الوحيد بين أصدقائى الذي يذهب إلى مدرسة المجلس الإسلامى . فالتفتت إلى داود وسألته إذا كان يعرف هذه المدرسة . فقال لها باسما : إنها كانت فندق بالاس الذى اشتراه المسلمون فالتفتت إلىّ وقالت :

- دافيد يذهب إلى واد ليومى . وهى مدرسة تابعة للوكالة .

قلت لها :

- لن استمر فى المدرسة .

فصاحت وهى تقضم قطعة ملبن بعد أن حشرتها فى فمها الذى بدا لى أنه صغير جدا ، أو لعل ضخامة جسمها وكتلة الشعر الأحمر المتوهج فوق رأسها جعلت فمها يبدو رقيقاً .

- لو كان الرأى رأيى لأرسلت دافيد إلى مدرسة ايفيلينادى روتشيلد إنها أحسن مدرسة عندنا .

وظلت ترمقنى بعينيها فى انتظار وقع الخبر الذىّ أعلنته على . ولكنه كان لا يعنى شيئا . فلما رأتنى لا أفصح عن شىء . أو يبدو على أنى لم أفهم . صاحت تنادى سارة . وهنا قال لها داود بسرعة :

- إنها سترفض أن تصنع القهوة .

فقالت له أمه فى ثقة أشبه بالدلال :

ـ لا شأن لك بذلك .. لا تتدخل فى شئونها .. وخذ ضيفك والعب معه فى الفناء .

وظهرت سارة .. صبية نحيلة ، ولكن وجهها به شبه كبير بوجه أمها ونمش خفيف فى خدودها . شعرها أحمر متوهج ، وأنفها مرتفع ، الحدة فى وجهها أوضح من الحدة فى وجه داود ، والتقت عيوننا ، وحولت عينيها عنى ، ولم تعد تنظر إلى ، بينما تعلقت نظراتى بها ، فأنا لا أرى كل يوم مثل هذه البنت ، وسوف أحكى لشقيقتى سعاد عنها ، كانت ترتدى فستانا من التيل الأصفر ، ذراعاها عاريتان وفى يدها اليسرى مجلة .

وسمعت الأم تولول بصوتها الرفيع :

ـ ارحمى أورشليم .. هذا الشيء الذى فى يدك يبيعونه يوم السبت .. الا يكفينا ما نحن فيه من ذنوب ومصائب .

وقضمت قطعة ملبن بعصبية ونهم . بينما ارتفع صوت سارة خشنا على غير ما توقعت وبلهجة غير مبالية . .

ـ انا اشتريها يوم الجمعة واتسلى بها طوال الأسبوع

فتدخل داود قائلاً : سمعت أنهم يعملون فى هذه المجلة يوم السبت .

فصاحت سارة بلهجة خشنة توشك على الانفجار :

ـ لا شأن لك بى .

فقالت لها الأم :

ـ اذهبى واصنعى القهوة لضيف أبيك .

توقعت أن تنظر إلى ، ولكنها استدارت وابتعدت ، وكأنها لا تشعر بوجودى . كان فى وجهها شحوب وفى عينيها لمعة ، وفى بشرتها لون دماء تجرى فى عنفوان . دماء لا تسرى بل تتدفق وتجتاح الجسد . لو كانت صبياً لصادقته ، أما وهى بنت تركتنى فى حيرة . أريد أن أراها وأعرف المزيد عنها . أريد أن أتحداها . بل أريد أن أعانقها وأن أقبلها . على كل حال ليست هذه أخر مرة سوف أرى فيها سارة . هى والديك الذى يدق خارجاً من بابه الذى لم ينغلق . وعادت سارة بسرعة مذهلة تحمل فى يدها صينية القهوة . إن أمى تقضى أضعاف أضعاف هذا الوقت فى صنع القهوة . وقبل أن يخرج داود حاملاً صينية القهوة . قالت لى أمه :

ـ تعال زرنا فانا أريد أن يكون لداود أصدقاء من أولاد العرب المسلمين .

فقالت لها سارة دون أن تنظر إلى وبلهجة كلها دهشة :

ـ لماذا ياأمى .

كان السؤال وقحا .. ولم أسمع إجابة الأم فقد اكتفت بتوجيه نظرات غريبة إلى ابنتها . والتفتت إلى الأم وقالت بلهجة آمرة ولكنها طيبة :

ـ أسمع كلامى وتعال زرنا .

قلت لها متحديا ما سمعته من سارة :

ـ وداود يزورنا .

قالت الأم :

ـ نعم .. بعد أن يأتى المالك الجديد الذى أخذ الضيعة من التركى ..

قلت لها على الفور :

ـ اسمه شوكت الأنصارى .

قالت ترد على معلوماتى بمعلومات من عندها .

ـ المالك الجديد هو ماكس روزتنبرج .

ولاحظت امتعاضى من اسم الرجل الأجنبى . فقالت كأنها تشجعنى على التخلص من هذا الامتعاض :

ـ إنه من ألمانيا .

قلت : كيف يعيش بيننا .. أيتحدث لغتنا .

قالت وهى ترمقنى باسمة وكأنها تريد أن تكسبنى وتشعر برضائى

ـ إنهم لا يتحدثون سوى الألمانية ـ وربما اليديش .. لغة اليهود .

كان داود قد ابتعد هامسا :

ـ انتظرنى .

وكنت قد جلست ذاهلا أرقب الأم وسارة ، ولاحظت أن الحجرة معتمة

وأني لم انتبه لذلك عند دخولي . كما لاحظت أن ثمة رائحة بخور في المكان لم انتبه إليها أيضا وقد تركزت كل مشاعري حول منظر الأم ثم قدوم سارة . وكانت الأم تسألني الآن عن اشقائي وشقيقتي سعاد والعمل الذي يقوم به أبي . وكانت تتحدث وهي لا تكف عن إصدار أوامرها لسارة . فهي تريد ماء تشربه . وهي تريد تغيير وضع المساند التي تتكيء عليها . وهي قلقة خشية أن تكون سارة قد تركت النار موقدة بعد أن صنعت القهوة . وكان صوتها الرفيع يتلون بين القوة والضعف . وبين الأمر والشكوى . وشعرت بالفارق الكبير بينها وبين أمي . فهذه السيدة البدينة تأكل الملبن وتتزين وتجلس في استرخاء وكسل ، وتصدر الأوامر وهي جالسة تلحس السكر العالق في أصابعها . أما أمي فتعمل ليل نهار . تكنس وتغسل وتطبخ ولا تنقضي لحظة واحدة من غير عمل تؤديه . ليل نهار . وددت لو كنت أرى أمي كسولة منعمة تأكل الملبن وهي متكئة على أريكة مثل أم داود . كنت أنظر إليها بإعجاب . ولابد أنها أدركته . فقد ابتسمت في وجهي . وقالت لي وهي تشير إلى أن اقترب :

ـ أنت ولد ذكي .. وطيب .

ولما اقتربت أوشكت أن تمد يدها إلى قطعة الملبن الوحيدة الباقية وتعطيها لي . ولكنها عدلت عن قرارها . وترددت برهة لا تدري ماذا تقول لي . ولكنها مدت يدها وربتت على كتفي ، وما كادت يدها تلمسني حتى بدا على وجهها خوف فسألتني بلهجة لا تخلو من جزع .

ـ أليس هذا صحيحا .. أنت ولد طيب .. أم انت تخدعني ..

قلت لها باسما في ثقة :

ـ نعم .

سألتني في إصرار أغاظني :

ـ نعم ماذا ؟

ولما واجهتها بصمتي رافضا هذا الامتحان لمشاعري .

صاحت :

ـ نعم طيب أم نعم شرير ؟

قلت لها وأنا أنظر في عينيها فلا أملك سوى الرغبة في إطالة النظر

فيهما :

ـ نعم طيب .

وعادت تسأل سارة . إذا كانت واثقة أنها أطفأت النار بعد أن صنعت القهوة .

فاندفعت سارة خارجة من الحجرة وهى تتمتم بكلمات غاضبة

والتفتت إلى الأم وقالت وهى تمط شفتها السفلى :

ـ ستعود لقراءة ذلك الشىء اللعين .

وعادت تحملق فىّ وتسألنى سؤال من يعرف الإجابة :

ـ أنت مسلم .

قلت فى دهشة .

ـ نعم .

فأطرقت برأسها ، ثم عادت ورفعتها فالتقت عيوننا ، وأدركت انى انتظر منها تفسيرا أو شرحا لسؤالها عن إسلامى .. فقالت بصوت خفيض متعب :

ـ نحن هنا فى حىّ يهود .

وجاء داود . يعرض علىّ أن نخرج للفناء .

فهتفت الأم :

ـ لا تخرج إلى الشارع .. الشوارع ليست مأمونة .

فهز داود كتفه بينما تحول صوت أمه إلى ولولة وهى تكرر أوامرها له بعدم الخروج إلى الشارع . وكانت مشغولة بأوامرها التى كانت أشبه باستعطاف حتى أنها نسيتنى فلم ترد على تحيتى لها وأنا أغادر الحجرة .

كان شالوم يتحدث مع أبى عن الجنيه الفلسطينى ويقول له إنه يساوى ثلاثة دولارات ونصفا وسمعته يقول :

ـ الحكومة لديها فائض كبير من المال ، وسوف يسمح لها هذا الفائض أن تغيث القادمين من ألمانيا .

ثم صاح الرجل بصوت أشبه بولولة زوجته :

ـ إنهم يطاردوننا فى كل مكان .

واتجه داود الى الباب ، وأدهشنى أنه كان غير مهتم بتحذيرات أمه ، وأكتفى بأن ينظر فى اتجاه أبيه ، ثم خرج إلى الشارع وخرجت وراءه . وسرنا بجوار حائط المعبد .

وسألت داود :

ـ ماشكله فى الداخل ؟

قال : مثل المسجد .

فسألته : هل دخلت المسجد ؟

قال : لا .. ولكن أبى قال إن لديكم مساجد لأنكم تسجدون فيها .

وهمست : ألم تحذرك أمك ؟

فجرى دون أن يجيب حتى مدخل دكان يوسف خاله . رجل بدين أحمر الوجه ركز نظراته على وسألنى : ما الذى جاء بى ، وكان صوته جادا حتى خفت منه . قلت له : إنى جئت مع أبى فى عمل .

وقال داود :

ـ إنهم يجهزون بيت روزنبرج .

فنظر إلى يوسف نظرة غريبة ، وقال بلهجة كلها دهشة واستنكار :

ـ أنتم ..

فكرت فى أن الرجل لا يريد أن يأخذ أبى النقود . وأردت أن أعود بسرعة لاحذر أبى .. ولكن لهجة يوسف تبدلت فجأة . والتفت إلى داود وقال له بلهجة مرحة :

ـ كلها سنة أو سنتين وتسافر إلى باريس . وتتكلم الفرنسية .

فقال داود :

ـ إنها لغة صعبة .

فهتف بصوت له صرير معدنى :

ـ أبدا .. إنها سهلة .. لغة سهلة جدا .. اسمع هذه الحكاية بالفرنسية .

كان هناك رجل غلبان جائع .. وكان قد ذهب إلى باريس من قريته فى الريف . وأراد أن تكون له ثروة كبيرة ولكن لسوء حظه لم ينجح فى شىء فمشى فى شوارع باريس يقول : تلاتين ماتان ما أكلت البان .. عقلى ألو .. الأميزون .. وضحك يوسف وكأنه معجب بما قاله وسأله داود :

ـ هل فهمت ؟

وضايقنى أنه لم يوجه إليه السؤال أيضاً مع أنى لا أعرف الإجابة وقال بعد أن نظر فى زهو إلينا :

ـ هذا بالفرنسية معناه . تلاتين ماتان يعنى تلاتين يوم .. ماأكلت البان يعنى ما أكلت الخبز عقلى ألو الأميزون .. يعنى عقلى يقول لى عد إلى بيتك .

وضحكنا وقال له داود :

ـ أتريد ياخالى أن أذهب إلى باريس لاشحت فى الشوارع مثل هذا الرجل

قال يوسف مجلجلا بصوته المعدنى :

ـ الشحاتة فى باريس لها فوائد .. يكفى أن تتعلم الفرنسية ، وتعود تتكلمها مثل حكام البلد .

حدث وأنا عائد مع داود إلى دكان شالوم ، أن شعرت بشىء يرتطم برأسى ، وصرخت ، ولما مددت يدى إلى رأسى فى موضع الألم ، سحبتها وأصابعى مخضبة بدم غزيز .. وكان داود يصرخ لا أدرى لماذا ، وجذبنى مسرعا .. كان وجهه يفيض بالذعر . وكنت أراه كما لو كان هو المصاب ، وأنا أتفرج عليه .

وصرخ أبى وهو يرانى داخلا الدكان

ـ ماذا جرى ؟

ولما رآنى صامتا عاد يزعق بحدة :

ـ قلت لك ما الذى حدث ؟ أجبنى .

همست :

ـ لا أدرى :
فشخط صائحا فى غضب :
ـ كيف لا تدرى ياغبى ؟
وكان شالوم يجذبنى إلى الداخل .. وأبى يصيح فيه :
ـ أتركه .
وما كادت أم داود ترانى ، حتى نهضت مسرعة . وعجبت لخفة حركتها وأحضرت البن وكبسته فى الجرح فى رأسى . وقالت :
ـ الآن سيتوقف الدم .
قال شالوم :
ـ إذا لم يتوقف سنذهب به إلى المستشفى فورا .
نعم .. كان يريد أن يذهب بى إلى المستشفى .. لولا أن توقف الدم ..
وكان شالوم يقول :
ـ روزنبرج المالك الجديد .. طبيب .. وسوف يساعدكم فى أى حالة عندكم .
قال أبى ساخرا :
ـ لن ننتظر حضوره حتى يعالج ابنى .. وجذبنى من يدى ..
وسرت فى طريق .. ولم أعد أدرى أهو الطريق أم أنا سائر فى الطريق الجديد .. وأن الذى أصابنى رصاصة فى صدرى وليس حجرا فى رأسى .. ولا أحد يضمد جراحى .. ولا أسمع حركة تنبىء عن مجىء سيارة إسعاف وأنا أتقدم وحدى فى طريق يزداد عتمة وإن خيل إلىّ أن فى نهايته طاقة ضوء .

٥

شيء ثقيل أصم ينمو في صدري بينما الجمال تتهادى خارجة من ضيعة شوكت الأنصارى تحمل الصناديق المزركشة ومن حولها الشراكسة فوق جيادهم متجهمين شرسين . فى نظراتهم قسوة وغضب ، والويل لم يقترب خطوة نحو الجمال ، سوف يلسعه سوط الموت .

الويل لمن يقترب من الذهب المكدس فى الصناديق ، إنه ذهب شوكت الأنصارى أغنى أغنياء الأرض ، سيد الأرض ومن عليها ، ملاذ الرجال ، مصدر القوة ، والجاه والنفوذ ، مصدر الرهبة والخوف ، وهؤلاء الحراس يحرسون الكنوز التى تحملها الجمال . هذا الذهب ثقيل أصم تئن تحته الجمال . هذا الذهب الذى يحرسه الشراكسة جمعوه بالسياط والبنادق وسال من أجله عرق غزير ودماء أغزر والعيون مفتوحة مسمرة على الصناديق تحاول أن تثقبها بنظرات نفاذة حالمة تنفذ إلى الصناديق لترى الذهب والفضة والماس ، وترى المتاع الفاخر الذى جمعه السيد الكبير .

كان الصمت أقرب إلى الذهول خيم على الرجال والنساء والأطفال ، ومشهد الجمال كما لو فى الأحلام ، وكأنى أرى ما سمعته عن جدتى فى حواديتها ، وهذا الموكب يوشك أن يختتم كل شىء ، الضيعة والمال ، والقوة والجاه والرهبة والخوف ، كل ما عشنا به تمضى به الجمال فى طريقها إلى الأفق وكأنها تحمله مع الذهب فى الصناديق .

همس رجل يقف بجوار أبى . هذا الذهب سوف يتدفق علىٰ موائد القمار ، وأطرق أبى خفض بصره فالتقت عيوننا ، ورأيت فى عينيه ذلك الدهليز فى بيت الأنصارى ، تذكرت ذلك الذى كان يجب أن أتذكره من البداية ، رأيت الشراكسة يضعون الحجارة فى هذه الصناديق هذا الذهب حجارة ، هذا الكنز حجارة . هذا الموكب المهيب موكب للحجارة . الكنوز وهم أوشكت أن أراه مثلما يراه أهل قريتنا . شوكت الأنصارى مفلس ، باع أرضه لأنه مفلس ، هذا ما قاله شالوم لأبى ، أريد أن أصيح وأصرخ بأعلى

صوتى ، هذا الذى يمضى أمامكم موكب الوهم ، ترونه بعيون الماضى ، بجبروت الماضى ، بشراكسة الماضى ، ليتنى صرخت ، ليتنى أخرجت الرجال من أوهامهم ، ولكن المشهد كان أقوى منى ، كيف أهدم موكب الجمال ، كيف أحطم هذه الصناديق المزركشة ، كيف أطيح بهذه الكوكبة من الفرسان المدججين بالسلاح ينظرون بازدراء إلينا من فوق أفراسهم ، كان الرجال صامتين يراقبون الموكب بعيون تجتر مشاهد لمئات السنين ، لا أستطيع أن أمزقها ، كيف أمزق الخيال . أن الذى داخل الصناديق ليس حجارة ، أنه سحر وتعاويذ وطلاسم ، أنه رغبة متجمدة فى حجارة ، أن يظل كل شىء على ماكان عليه ، أن يظل الأنصارى السيد بين الأسياد ، وأن نظل نحن نرقبه ونتبعه ونثق فى ثرائه ، ونثق فى قدرته على حمايتنا ومساندتنا ، آه لو أنى صرخت فى ذلك الوقت ، لو أنى قلت للناس الحقيقة بأعلى صوتى ، هذه الحجارة التى أثقلت الصناديق تثقل صدرى الآن ، لقد خفت أن أمزق الوهم فمزق الرصاص صدرى ، الجمال تسير الآن فوق جسدى ، هاهى تتهادى فى مسيرة طويلة طويلة ، بطول مابقى من لحظات عمرى لحظات ابدية لموكب جمال شوكت الانصارى تحمل كنوزها من الحجارة يحميها فرسانها الجبابرة من الشراكسة متجهين بعيدا عن أرضهم وضيعتهم التى باعوها لليهودى الألمانى روزنبرج .

فى تلك الليلة التى مضى فيها الموكب ، كان الرجال فى بيت أبى يشربون القهوة ويدخنون النرجيلة ويسعلون ويتصايحون فى صخب شديد ، وقد أشتد حماسهم عندما قال لهم مختار العجوز إن هذه هى نهاية الشراكسة فقد دالت دولتهم وذهبوا إلى غير رجعة ، فاليهودى الألمانى أجنبى لن يتعامل مع الشراكسة . وكان أبى صامتا ولا أدرى ما الذى كان يفكر فيه ، وقد لمحنى عند باب الحجرة فوجه إلى نظرة غريبة ، كنت أعرف أنه يحذرنى أن أدخل أو أتكلم وقبل أن اتراجع كان أحد الرجال قد جاء يصيح بانفعال أنه شاهد بعض الشراكسة فى المقهى وأنهم كانوا صامتين والناس من حولهم يسخرون منهم ، ولا أحد يكترث لوجودهم ، وتصايح رجال يمزحون ويتساءلون هل جاء الآوان لإنزال العقاب بهؤلاء الطغاة ، فما كانوا طغاة إلا بقوة سيدهم ، وأما وقد ذهب السيد فقد تحولوا إلى أذلاء ، وتحمست لأن يخرج الرجال من بيتنا للفتك بالشراكسة وجرت الدماء فى عروقى فتقدمت وقد نسيت تحذيرات أبى ، فإذا به ينهرنى فى غضب ويأمرنى أن أدخل الدار ، وجعلت أقلب الأمر وقد التهبت خواطرى وأنا

ابحث عن تفسير لتصرفات أبى ، وأشعر بضيق وبدموع غيظ تسيل من عينى ، وفى صباح اليوم التالى كان شالوم يتحدث مع أبى فى طريقهما إلى الضيعة وأنا أسير خلفهما صامتا وكان شالوم يقول بصوته الحاد كأنه يصرخ من آلام تعذبه أن الذى يملك الذهب لا يعلن عنه ، ولا ينقله فى مظاهرة ، لو كان فى الصناديق ذهب حقيقى ما احتمل الرجل أن يتركه يمر أمام الناس وهو يعرف أنكم مطالبون بالضرائب ، وهو يعرف أنك تريد المال حتى لايغلق الانجليز مصنعك . لو كان الذهب فى الصناديق ماتركه الجنود الانجليز الذين جاءوا بالقرب من الضيعة وعسكروا بخيامهم وعتادهم ، كان الجميع أنتم أو الانجليز هجموا على الصناديق وأخذوا الذهب .

واستمع أبى إلى شالوم ثم انفجر فى غضب يرفض ما يسمعه . إن الأنصارى لايخشى أحدا ، فهو أبن أصول وعائلته عريقة ولها أمجاد ومثله لا يخدع ولا يغش ، واستمع شالوم إلى أبى ولاذ بالصمت ، كان أبى يكذب ، ولكنى استمعت إليه وكأنه لا يقول إلا الصدق ، بل شككت فى حقيقة ما كان فى الصناديق ، فما ادرانى ان هناك ذهبا حقيقيا فى بعض الصناديق ، وربما فيها كلها إن أبى لا يدافع عن حجارة ولا أوهام ، وسمعته فجأة يقول لشالوم :

ـ على اية حال ليس الذهب هو كل شىء ، فالرجل لا يكون فقيرا عندما يعوزه المال ، وإنما الفقر الذى يذل الرجال ، ويخضعها هو أن يعوزها الأهل والأصدقاء ، الفقير هو الذى لا يجد رجالا يعتمد عليهم ، وهذا القادم الأجنبى هو الفقير لأنه غريب .

وكان شالوم يأتى إلى الورشة ليطمئن على تنفيذ طلبات الساكن الجديد الذى لم نره بعد ، وجاء ذات يوم ومعه داود ، فمشيت معه فى الحقول فى الطريق المفضى الى البركة ، وعلمت انه سوف يأتى كثيرا هو وشقيقته سارة بعد وصول الالمانى ، وان للرجل صبية صغيرة فى مثل عمرنا اسمها ديبوراه ، وسيحاول هو وشقيقته التسرية عنها فى وحدتها . وبينما نحن سائران رأينا قافلة من أربع سيارات فيها جنود انجليز على رءوسهم خوذات ، ووجوههم حمراء توشك الدماء ان تنفجر منها ، وكانوا قادمين من معسكر اقاموه بعيدا عن قريتنا ، ورأينا السيارات تقف عند ربوة ويهبط منها الجنود ، وكان منظرهم يثير فضولنا ، فوقفنا نتلكأ وهم ينقلون

صناديق صغيرة ، من السيارات ، ويتحركون بها وقد حملوها على سواعدهم صاعدين الى قمة الربوة .

وواصلنا السير انا وداود في اتجاه بيت الانصارى ، وكان داود يريد ان يعرف الطريق ، ورأيت شقيقتى سعاد ترعى الغنم ، واشرت الى شجرة الزيتون وقلت له :

ـ هذه شجرتنا .

فقال لى :

ـ هل تسابقنى اليها ؟

قلت :

ـ نعم .

وقبل ان انتبه كان قد انطلق يجرى الى الشجرة ، فجريت خلفه ، كان قد سبقنى بعشرات الامتار ، وكان يعدو بسرعة غير عادية ، ولكنى كنت واثقا انى سألحق به ، وسأصل الى الشجرة قبله ، لان قدمىّ تعرفان الارض ، وبينها وبين كل موطىء قدم عمار والفة ، والارض ارضى ، والشجرة شجرتى ، وارتطام عظام قدمىّ بالأرض يملؤنى دفئا ، وتجرى احاديث خاصة بين قدمىّ وارضى ، لغة مشتركة بينهما من الاحاسيس والتجاوب الذى يسرى في اوصالي واشعر به ممتدا فى التراب والحصى والهواء ، ممتدا فى عروقى وانفاسى ،وكلنا واحد ، وانا لا اعدو الى الشجرة ، لانى وهى كيان واحد ، حتى وانا بعيد عنها ، وهى معى وهى هناك تنتظر مقدمى ، وهذا التراب وهذا الحصى الذى يستقبلنى فى هذه اللحظة ، هو نفسه الذى جعلنى اسبق دواد دون أن أفكر ، دون أن أدرك أنى عدوت ، ولكنى سقطت تحت الزيتونة لاهثاً كما الهث الآن وحدى بينما كان داود فى تلك الأيام يلهث بجوارى ، أنفاسنا تتصاعد ، وهو يقول لى :

ـ سأسبقك المرة القادمة .

لم يقل لى فى ذلك الوقت :

ـ سنقتلك المرة القادمة .

وقبل أن نلتقط أنفاسنا تحت شجرة الزيتون ، كان وجهه أحمر يوشك

الدم أن ينفجر منه ، يطل علينا ويتحدث بالعربية رغم أنه وجه ضابط انجليزى ، طلب منا الرجل أن نبتعد ، هنا خطر ، سوف يطلقون نيران الهاون والمدافع الرشاشة ، كان باسما ولم نخف وابتعدنا حتى بلغنا الطريق ، وكانت سعاد قد اختفت مع الغنم ووقفنا نرقب عن بعد وهم يطلقون المدافع ورصاص الرشاشات ، وكان الصوت ضعيفا على غير ما توقعت ، وليس فيما آراه هيبة الشراكسة ، ورغم أن شيئاً لم يحدث يثير الانتباه أو الفضول ، فاننا جلسنا بعد أن طالت وقفتنا فى انتظار شىء ما ، ورأينا جماعة من الضباط الأنجليز يقتربون ثم جلسوا بجانب الطريق على مبعدة منا ، وكانوا يشعلون النار تحت صفيحة ماء ، وأعدوا أكواب الشاى ، ونظراتهم تتجه إلينا بين وقت وآخر ، وأنا وداود لانحول أنظارنا عنهم ، وفجأة رأينا أحد الضباط يقف ويسير فى اتجاهنا حتى أصبح على بعد عشرة أمتار منا وإذا بشىء لامع فى يده ويلوح بذراعه فى اتجاهنا وهو يقذف بهذا الشىء نحونا ، أكان قنبلة أكان يريد قتلنا . لم يخطر ببالى شىء ، ولا أدرى لماذا لم أهتم ولم أخف ، وهذا الشىء اللامع يهبط أمامنا على بعد مترين ، وراقبته فى حذر بلا خوف ، وسمعت داود يهمس :

- لاتقترب منه .. إن أمى تحذرنى من لمس هذه الأشياء قد تكون قنبلة تنسفنا .

وكان الضابط الذى قذف القنبلة قد استدار عائدا إلى مكانه ، ولكنه التفت برأسه فرأى أننا لم نتحرك من مكاننا ، فصاح بنا ولم نسمع ما يقوله . فإذا به يتجه إلينا من جديد ، وأمسك فى طريقه بالشىء الذى قذف به نحونا وتقدم يتفرس فينا وهاهو يقف طويلا ينظر إلينا من علٍ ويسألنى :

- من أنتما ؟

أجبت بسرعة :

- أنا عربى .

فصاح داود قبل أن يسأله الرجل :

- أنا يهودى ..

وضحك الرجل بصوت عال وهو يسألنا :

- ما الذى جمعكما ؟

فلما قابلناه بالصمت ، قال متسائلا :
ـ هل أنتما صديقان ؟
أجبنا فى صوت واحد :
ـ نعم ..
ومد الرجل يده بالشىء اللامع الذى فى يده ، وقال إنه علبة مربى ، وظل مادا يده برهة قبل أن أتشجع وأمسك بها ، وعاد الرجل أدراجه .
وسألت داود : ما الذى يريده هذا الرجل ؟ فأجابنى وهو يهز كتفه أنه لا يدرى ، وأنه سيحكى لأمه كل شىء ، وفجأة سألنى :
ـ أتريد أن تكون صديقى حقا ؟
قلت بغير تفكير :
ـ نعم ..
فقال :
ـ وأنا أيضا ..
وقال إنه سيلتقى بى كثيراً عندما يأتى لزيارة الألمانى ، وأنه يشعر بأن هذه الزيارة واجب ثقيل مفروض عليه هو وشقيقته سارة .
وفجأة انطلقت أصوات المدافع تزمجر بعنف ، وارتفع الدخان فوق الرابية وظلت المدافع تزمجر وتسكت وتزمجر حتى شعرت بالجوع ، فأردت أن أفتح علبة المربى ، ولكن بدا خوف حقيقى على وجه داود ، وقال لى بلهجة ناصحة أن مثل هذه الأطعمة ليست لنا .
قلت له : وماذا أفعل بها ؟
قال : اتركها فى الأرض .
ولكنى لم أوافقه ، وأخذت العلبة إلى أمى التى فرحت بها ، وقالت إن المربى التى يصنعها الانجليز جيدة .
وفى المساء كان الرجال يتحدثون عن إطلاق المدافع والرصاص ، وكيف انقطت الحركة فى الطريق إلى القدس .. وأغلقت السوق عند

البركة ، وكانوا يتساءلون عن صلة ما يحدث بذهاب شوكت الأنصارى ، إذ قال أكثر من رجل إن الانجليز ماكانوا يجرءون على ضرب النار بالقرب منا لو كان شوكت الأنصارى بيننا .

وصاح رجل يقول :

ـ ذهب الشراكسة ، وظهر الإنجليز ..

وقال آخر ..

ـ الرجل الجديد يعتمد عليهم .

وهنا تدخل مختار العجوز وقال بثقة ، وهو الذى يذهب إلى القدس ، ويحضر اجتماعات الكبار : إن المالك الجديد ألمانى ، والانجليز لايحمون الألمان فبينهم عداوة لاتنتهى ، وإذا كان الإنجليز قد جاءوا إلى قريتنا فما ذلك إلا لتخويف الألمان ، وهنا تعالت الضحكات ، وسمعتهم يقولون إن القادم الجديد يهودى يخاف من ظله ، فر من بلاده خائفا من هتلر ، وكنت اتابع حديث الرجال وأنا أقف خارج الباب ، وأتمنى لو أن أبى حكى لهم قصتى فى الصباح مع الضابط الانجليزى وعلبة المربى التى جئت بها إلى دارنا ، ولكنه لم يقل شيئا ، وظل يستمع إلى حديثهم وقد لاذ بالصمت ، حتى سمعت صوته هادرا ، وكأنه يرانى وأنا أقف خلف الباب ، أن أذهب لأنام ، وذهبت فنمت بين أحضان الربوة العالية وتحت ظل شجرة الزيتون ، وطنين رصاص وهدير مدافع ياإلهى إن الأمر قد اختلط علىّ ، ولم يبق شىء اثق فى انه صحيح ، لا علبة مربى ، ولا زمان أتحرك فيه ، وكل ما بقى لى هو هذا الحديث الذى يدور بين جسدى وتراب هذه الأرض .

شغاف قلبى تدمى ، منذ متى وهى تدمى . نعم شغاف قلبى تدمى ، والصلب يمزق صدرى وشغاف قلبى تدمى بينما المالك الجديد لضيعة شوكت الأنصارى يقف بباب الدار مرتديا بدلة سوداء وعلى رأسه قبعة مستديرة سوداء وتتدلى من ذقنه لحية مدببة سوداء . وعلى عينيه نظارة زجاجها سميك لها إطار معدنى لأمع فى لون الرصاص .

٦

يخاطبنى لأنقل ما يريد أن يقوله لأبى الذى ينصت متظاهرا بالفهم ، وبأنه لا يحتاج لمساعدة ، يحاول أن يترجم ملامح الوجه ، نبرة الصوت اللغة الأجنبية لا تعنى سوى إضاعة الوقت . ينفر منها . ولا يقول لى مثل خال دواد تعلم فى باريس وتكلم الفرنسية مثل حكام البلد ، يقول مختار العجوز إن شوكت الأنصارى يتكلم الفرنسية كما لو كانت أمه فرنسية . أما أبى فلن يقول لى مثل يوسف خال داود "تلاتين ماتان ما أكلت البان ، عقلى ألو الا ميزون" هذه الكلمات التافهة أرسلت داود إلى فرنسا أما أبى فكان يعرف تماما ما يريده اليهودى الألمانى . يريد صهريجا كبيرا هناك فوق الواجهة القبلية ، ويريد صهريجا أصغر فوق تلك الحجرات التى كان يحتفظ فيها الأنصارى بالجمال . لقد اختفت الجمال ، واستقرت مكانها تلك السيارة السوداء الكبيرة التى اقتحمت الطريق فأثارت غبارا كثيرا وضجة أكبر ، وجرينا عندما سمعنا نبأ وصولها . كنت أريد أن أراها تجرى حيث تجرى الخيل وتمرق بسرعة تسبق بها البغال والحمير . وكنت أتمنى أن أسمع البوق يطلق أصواته القوية محذرا الناس من هذا الذى ينهب الطريق . ولكنى فى ذلك اليوم لم ألحق بالسيارة . واكتفيت بما سمعته عنها وهاهى الآن واقفة أمامى أدور حولها وأتمنى لو حانت فرصة لأركبها . هأنذا فى بيت الأنصارى بعد أن أصبح بيت الخواجه روزنبرج . الدكتور روزنبرج الجميع يلقبونه بالدكتور . ولكنه لا يعالج أحداً .. رغم أن شالوم ظن أنه يستطيع أن يعالجنا من الأمراض .. إنه طبيب فى شىء آخر غير الطب .. ماهو ؟ مضت سنوات قبل أن اتبين أنه طبيب فى فلسفة التاريخ . مهنة شرحها لى قاسم الحسينى وهو يحكى لى عن قريتى ونحن خارجان من المسجد الأقصى . بالأمس سقط قاسم بجوارى فى القسطل . أما الأمس الآخر فكان الدكتور روزنبرج مازال طبيبا لايعالج المرضى . يقول أبى عنه إنه رجل طيب . غلبان ، مقهور على أمره . مازال أبى مصراً على أن الفقر هو الوحدة والحرمان من الأهل ، والأصدقاء . الرجل فقير غلبان ،

ليس له إلا أمراته وأمه وابنته الصغيرة . هو الذكر الوحيد بينهن ، نسوة بلا حول ولا قوة ، ورجل بلا حول ولا قوة ، أين هو من شوكت الأنصارى . وأقام روزنبرج حفلا ودعا رجال القرية . وذبحوا الذبائح وارتفعت إلى السماء رائحة الشواء . وجاء شوكت الأنصارى ليؤكد لأهل القرية أن الغريب جاء بإذنه ، وأنه مازال فى حاجة إلى نفوذه . وكان مختار العجوز يجلس إلى جوار الدكتور روزنبرج أما شالوم فقد جلس بجوار شوكت الأنصارى وبجواره من الناحية الأخرى جلس أبى ، وجاء من المعسكر القريب ضباط الجيش الأنجليزى . وجاءت سارة وداود ، ورأيتهما يدخلان من باب ، وكان الرقص والزمر . والشراكسة يطلقون النار تحية للأنصارى ، ودار الهمس أن الشراكسة باقون ولن يغادروا القرية مع شوكت ، لقد أستأجرهم الغريب الألمانى وأبقاهم معه . وكان صوت يهمس فى أذن أبى . كيف ننصح الغريب ، كيف نتفاهم معه حتى لايسيطر عليه الشراكسة ، ولا يسلم أموره لهم . لا أحد يستطيع أن يتحدث مع الخواجة مثلك يا أبا مروان ولمحت داود يقف عند الباب الذى كان قد دخل منه ، فذهبت إليه وقال لى متأففا :

ـ هذا الخواجة كافر لقد حذرتنى أمي من طعامه .

قلت له :

ـ إنه لا يأكل لحم الخنزير .

فهز رأسه لايريد أن يسمع شيئا عن الطعام . وتسللت أنا وداود داخل البيت وكانت سارة بالداخل مع ابنة الدكتور التى أسمها ذيبوراه . وكان صوت أصوات مزعجة تصدر عن بيانو ، وقابلتنا سيدة هى زوجة الدكتور . عرفت فيما بعد أن أسمها حنه ، أمرأة شعرها أحمر وعيناها تشعان زرقة حادة ووجهها ملتهب ، أنفها حاد ، صوتها غليظ رخيم . وكانت هناك سيدة عجوز نحيفة قليلة الحجم بيضاء الشعر . صوتها رفيع تتحدث دون أنقطاع بلغتهم التى لا أفهمها . وأدخلتنا حمراء الشعر إلى الحجرة التى تتفجر داخلها أصوات مزعجة . فرأينا سارة تقف بجوار بيانو وديبوراه تجلس وتعزف .. شعرها بنى وبشرتها أقرب إلى السمار وكأنها ليست ابنة المرأة ، ولم تلتفت إلينا بل إنطلقت فى الصراخ وهى مازالت تعزف أو تضرب بأصابعها بقوة على مفاتيح البيانو ، وغمزت سارة لداود بعينيها ، ولما التقت عيناها بعينىّ غمزت لى أيضا ، فمست برموش عينيها شغاف

قلبى ، وأدمتها ، هكذا بلا تمهيد وبلا إعداد فمنذ تلك اللحظة شعرت إنى منجذب نحوها وما كنت أصدق أن هذا الشعور الآسر سوف يستولى على ويستعبدنى بكل هذه القوة . كأنى كنت محروما من شىء تتوقف عليه سعادتى فوجدته أمامى فجأة . نعم لا أخجل . وأقولها أنى كنت محروما من سارة . كنت لا أعرفها ، ولا أعرف كيف أخاطبها ، ولا أعرف كيف يكون بينى وبينها كلام أو تعامل من أى نوع . وكان الصمت بيننا جدارا طبيعيا يحمينى من مغامرة الأتصال بها فأتعرض لأشياء مجهولة أو مخيفة أو مربكة لا أدرى كيف أواجهها ، ولقد كانت سارة فى ذروة غربتها وهى واقفة بجوار هذه البنت الغريبة الألمانية وهى تصدر هذه الأصوات الشاذة . كانت مع الغرباء ، وكانت مع نظراتهم إلىّ ، وكلامهم بلغة لا أفهمها يتساءلون من أكون ، ولماذا جئت ، فهناك أشياء يفهمها المرء بلا حاجة إلى لغة ، مثلما يفهم أبى طلبات روزنبرج رغم أنه يحدثه بالألمانية . وكنت أتجاهل مشاعرهم ، أو لا أفكر فيها . ولكن الآن تغير الموقف تماما . بعد أن حركت رموش عينيها وغمزت بطرفها . لم تقل لى أنها تسخر من ديبوراه ، قالت لى أكثر من هذا ، قالت أنها تستطيع أن تتصل بى بلا كلام ، بطرفة عين ترسل إلىّ المعنى ، والمشاعر ، عبر مساحة الحجرة ، فيستقر فى ضميرى ما تريد أن تقوله لى .. إنها أقرب إلىّ منهم . إنها لاتنتمى إلى هذا الضجيج الذى يصدر عن البيانو وهذا الصراخ الذى تطلقه ديبوراه . وما كادت حركة عينيهَا تتم حتى هاج بى الحب . حب سارة فهى بلا مبالغة طعنت قلبى . وأدمته ، هاتان العينان تتسعان ، فهما أكثر رحابة من هذا البيت الذى لم يعد ملكا للأنصارى . والذى أشتراه الدكتور الألمانى ، وفى هذا الجو الغريب الذى تنطلق فيه أنغام منفر ة مزعجة ، وتشيع صرخات يزعمون أنها غناء وطرب .. فى هذا الجو العجيب ، الخرافى ، وقعت فى حب سارة . لم يعد يهمنى أن بينى وبين شقيقها صلة ، إن ما حدث لهذا البيت ، قد جعل كل شيئا مباحا ، والآن أستطيع أن أنظر إليها ، وأن أبتسم ، وأن أرسل لها مع النظرات ، عبرات وتنهدات وتأوهات . آه منك ياسارة ، هذه البداية لا تنبىء عن النهايات ، بداية لا معنى لها ، أم كان المعنى كامنا مستورا فلم أدركه حتى فات الآوان ، على اية حال هذه البداية مستقرة محفورة فى شغاف قلبى . وهاهى تدمى فتفرز مع الدماء صورا تفور وتنتشر مع تلك الرقصات والغناء والطرب مع

موسيقانا ومزمارنا فى الخارج . ليطغى على صراخ ديبوراه ، فأتشجع لأقول كلمتي الأولى والأخيرة .. هيا بنا نخرج ، أقولها وعيناى فى عينى سارة فتوافقنى ، ويمضى وراءنا داود وتركنا ديبوراه وأمها وجدتها العجوز وجرينا إلى شجرة الزيتون ، وكلما حاول داود أن يسبقنى أمسكت به ، وكلما حاولت أن أسبقه أمسك بى ونسقط ونتدحرج وسارة تجرى خلفنا . وأصيح بكل قوة فى سارة :

ـ هل تركت صاحبتك .

فتضحك لاهثة . ثم تقلدها وهى تغنى ، وتصدر صوتا كالعواء . فنضحك ونضرب الأرض بأقدامنا وتسيل الدموع من عيوننا . وأقول لسارة :

ـ أنت ماكرة .

فتضحك ، وتقلد مشية أم ديبوراه ومشية الجدة العجوز ، وتقلد لهجتها الألمانية شخشخشخياه شخشخشخشخياه .. كانت بارعة فى التمثيل ووددت لو أهجم عليها وأقبلها ، فقد ملأتنى بفرح وسعادة وبدت كما لو كانت أجمل ما فى هذه الدنيا ، وصاح داود :

ـ هيا نتسابق .

جرى ، وجريت وراءه لا أريد أن أفارق سارة ، وسبقنا داود ، وكانت أمى وشقيقتى وزوجتا شقيقى وأولادهم جالسين تحت الشجرة يستمعون عن بعد للغناء وموسيقى الرقص .

وقبل أن نصل إليهم سألتنى سارة بدهشة :

ـ من هؤلاء ؟

قلت لها :

ـ أمى .

ونادت أمى علينا وسألتها إذا كانت شقيقة داود . وطلبت منها أن تجلس معها ، ودهشت أنها جلست ، وغمزت لها بعينى فضحكت فسألتها أمى مالذى يضحكها ، فكتمت فمها بيدها وقفزت تجرى وجريت وراءها ، فأصطدمت بحارس شركسى ضخم كان يقف كالمارد ، لا أدرى كيف ظهر لى . وأمسكنى من كتفى ، ولم أفهم ماذا يقول . وخيل إلىّ أنه غاضب لأنى اصطدمت به واعترضت طريقه . وسمعت صوت أمى صارخا مولولا ، وكان الرجل مازال يهزنى من كتفى ، وصاحت سارة فى خوف أنها ذاهبة ، ونادت

داود ، وتركانى أواجه الشركسى المارد وحدى ، وأمى تشتمه ، ودفعنى الرجل بغلظة فكدت أسقط على الأرض ، بينما ابتعد ، وقبل أن أفيق كان قد عاد ومعه رجلان آخران وقد أمسكا بالسياط فرقعوا بها فى الهواء ، وفرت أمى والعيال ، كانوا يولولون ، وأختلط صوت الولولة والصراخ بصوت الغناء والرقص ، ولا أدرى إذا ما كانت ديبوراه كانت لا تزال تواصل هى أيضا صراخها ، ولكنى أسمع الآن كل هذه الأصوات مختلطة تعربد داخلى ، فيرتجف ذلك الذى كان جسدى رجفاته الأخيرة وقد بقيت معى صرخات أمى تعلو فوق كل الأصوات وتكتسح الضجة وقد أندفعت فى أتجاه الرجال تصيح يا أبا مروان وتنادى شوكت الأنصارى أن يؤدب رجاله ، ولكنها لم تستطع أن تتقدم ولم تستطع أن تخترق بصوتها أصوات الغناء والرقص وقد أمتدت الأيدى الخشنة تدفعها بعيدا عن صوت المزمار . لقد أستولى علىّ فزع ، لا اعرفه الآن ، وما عاد يشغلنى شىء سوى العودة بأمى الى دارنا . الدار التى لم أستطع الوصول إليها الآن ، وكانت تقول لى : اذهب وناد أباك ولكنى لا استطيع أن أنادى أحدا الآن ، وكنت أريد أن أطمئن عليها ، ولكنى لا استطيع أن أطمئن عليها الآن . لعلى فى ذلك اليوم لم أستطع أن أواجه الشراكسة وحدى ، وكنت لا أدرى ما الذى دهانى ، وكنت مشغولا بسارة ، وكيف هربت بسرعة ناجية بنفسها . وقلت إنها كانت على حق ، فقد أدركت أن الأذى سيلحق بها لو انتظرت ، وهاهو أبى يسألنى ما الذى حدث ، كيف ظهر أبى ، ومتى ، كان ذلك فى نفس تلك الليلة ، أم بعد أن سمع من أمى والعيال ما حدث . كانت نظراته جامدة باردة . وسألنى :

ـ لماذا لم تأت إلىّ . لماذا لم تستنجد بالرجال . كان شوكت الأنصارى مازال بيننا ، والآن قد ذهب إلى بيروت وربما إلى غير رجعة ، أما الشراكسة فباقون ، ونحن أيضا باقون . وقد أزداد الشراكسة غلظة بل جن جنونهم ، لأنهم يشعرون بالضعف . ولأنهم خدم عند رجل ليس من دينهم ولا جنسهم ، وهم يريدون أن يثيروا الفزع بيننا ليثبتوا لأنفسهم قبل أن يثبتوا لنا أنهم أقوياء . وسوف يفرضون وجودهم بالرهبة والرعب . ولكننا لن نسكت لهم .

من الذى ينقذك ياأبى من هؤلاء الشراكسة . لقد ذهبت سعاد بالغنم ترعى عند الزيتونة . فتصدوا لها بالسياط وعادت مذعورة باكية وقلت ياأبى إنك ستخاطب الدكتور روزنبرج فى الأمر ولابد أن ينزل العقاب بهؤلاء

الوحوش الذين استأجرهم لخدمته .

وذهب وعاد من عند روزنبرج وقال بصوت حزين إن الرجل قد وافق على أن تستمر سعاد فى رعى الغنم فى نفس المكان الذى أعتادت عليه ، ولكنه قال محذرا أن هذا سيكون إلى حين . كيف إلى حين . كيف تنقطع العادة التى توارثناها عن الأجداد ، لقد أختفى الأنصاريون . وذهبت معهم حاجاتهم إلى الدهان الذى تستخرجه أمى من الزيتون . كل شىء يتغير ويتبدل وسوف تحدث تغيرات فى الأرض لا يستطيع هذا الألمانى الغريب أن يحددها من الآن ، ولكنها آتية ، وكل ماهو . مسموح لنا عند شجرة الزيتون إلى حين .

صرخت أمى :

ـ والشجرة .

كان لايهمها الرعى ولا الغنم ، كانت تريد الشجرة . ولن تفارقها . فقد حصلت عليها بالإرث ، بالتقاليد ، بإمتداد الأجيال ، الاجداد والآباء وسمعنا أبى يقول :

ـ لا أدرى .

وصاحت أمى :

ـ كيف لا تدرى .. إنها شجرتنا .

قال أبى :

ـ لا تسبقى الأحداث يا امرأة .

قلت لأبى :

ـ هؤلاء الشراكسة يستحقون القتل .

فنظر أبى إلىّ طويلا ، عيناه فيهما آلم . وأدركت أنه سمع عند الدكتور روزنبرج كلاما لا يستريح إليه ولا يريد أن يفصح عنه .

فأنفجرت غاضبا أصيح فى أبى :

ـ هل أنت خائف منهم ؟

فرفع كفه ولطمنى .

نظرت إليه خائفا . الألم يزداد فى عينيه ، والخوف ينهشنى ، فأبى يهاجمنى ، والقرية غير آمنة وقد هجرها الأنصارى ، والشراكسة قد جنوا ، وشجرة الزيتون مهددة بالضياع ، وليس فى هذه الحياة بصيص فرحة أو ضحكة . سوى تلك التى وجدتها عند سارة .

وهجم أبى علىّ ، واحتضننى ، وقال فى ألم :

ـ أبوك ليس جبانا ولن يكون أبداً .. ولكن الأنصارى هو الذى تخلى عنا ، وترك الأرض وباعها بشراكسته إلى الغريب ، ولم يبق أمامنا إلا أن نعمل بسواعدنا ونعد الصهاريج لهذا الغريب ولغيره ، ولن تذهب سعاد إلى أرض الغريب بالغنم ، وهى ستتزوج ، وسوف يعد لها مختار العجوز بيتا فى القدس . أما هذا الغريب فلا أعرف كيف نعاشره . وهل تمضى به الحياة معزولا عن ناسنا وأهلنا . أم سوف يتغير ، إن غيره جاء إلى بلادنا فأعتنق الإسلام وتاب وأناب ، ولا أدرى كيف يطمئن إلى الشراكسة ، ولو كان عاقلاً لخشى غدرهم ، فهم يكيدون ويغتالون ، وصدقنى ياولدى أن ما يحدث الآن ماهو إلا بداية لأحداث قادمة ، يعلم الله وحده ماسوف تنتهى إليه .

وأطرق برأسه وتنهد وقال :

ـ قريتنا لن تعود كما هى .

قلت لنفسى وحياتى أيضا لن تكون كما هى . فقد غمزت لى سارة بطرف عينيها .

٧

الدم يسيل ولكنه فى لحظات سوف يجف ، كما جفت دمائى بعد أن سالت ونزفت فى عشق سارة . كرهتها بقدر ما أحببتها ولا أدرى ماالفرق بين حب وكره لهذه الفتاة ، لهذه المرأة ، لهذه العاهرة ، لهذه الأنثى القاتلة ، لا أدرى سوى أنها كلمات تفور فى رأسى وتصرعنى . وتقتلنى وتحيينى فى عذاب دورى أبدى لن استريح منه أو لعلى أخيراً على وشك أن استريح .

إن دمائى تدور دورتها الأخيرة فى عروقى فتدور معها أشجانى مع سارة . الصبية الحلوة ، حمراء الشعر ، النمش خفيف فى خدودها ، ووجهها شاحب ، عيناها صافيتان ، زرقتهما تشبوها خضرة داكنة ، أنفها حاد عصبى ، شفتاها متقلبتان تكتنزان وتغلظان.لاتستقران ابدا على حال مثل مزاجها المتقلب ، هى التى علمتنى أن المرأة ليست جسداً فقط ، ولكنها تريد أكثر ، تريد الخضوع والوله فى عينى ، تريد أن تمتلك عقلى كما امتلكت مشاعرى ، علمتنى معنى الولع ، حرقنى واحزننى ، وأصابنى بالجنون ، فقد ابتلعته كما يبتلع السمك الشص المختبىء فى الطعم . كانت وهى تفارقنى كأنها تنزع قلبى وتأخذه معها ، فكيف لى أن استعيد عقلى بعد أن حاصرتنى وتهت معها فى عالم لا عودة منه .

أى جنون يطبق على العقل حتى أرى كل ما عداها كذباً ، وكل ما له صلة بها عجبا ، وقد حبسنى ولعى بها عن الحياة التى كنت أعرفها ، لم أعد ابن أبى وأمى ، ولا شقيق مروان وحسان وارتبك إذا التقت عيناى بعينى سعاد ، وأمى تتنهد ولا تبوح بما تعرفه ، لا تريد المواجهة ولا تريد الفضيحة لأنها تعرف والحسرة فى صدرها أنى لا أرى ولا أسمع شىء أتمناه مثل أن أنطلق خارج البيت أنتظرها فى الطريق ، نعم فى ذلك الطريق أشتد بى اللوع وأحترقت أنفاسى شوقا ، فيسوء خلقى وتهاجمنى أفكار الشر ، فعندما يفيض بى الشوق ينخرنى جزع يسلمنى إلى فزع وفزع

يسلمنى إلى جزع يستوليان علىّ ويتقاذفانى ، حتى تصرخ أعماقى لابد من التخلص منها لابد من قتلها . ياإلهى أنا أول من فكرت فى القتل . كل ماأفكر فيه كيف أعاقبها ، لأنها تأخرت ، لأنها لاتريد أن تنقذنى من هذا الفراغ فى الكون الفسيح لا أرى فيه سماء ولا أرضاً ولا تلالا ولا بساتين ، لا أرى ما تراه كل العيون ، أخاف أن أتلفت حولى ، أخاف أن تقع عين أنسان على كيانى ، لأنه سيعرف على الفور أنى مخلوق ضعيف ، لوعه الحب ، وأوجع قلبه ، وسوف يقول هاهو الجبان الذى أخضعته اليهودية وأضاعته فى الطريق ، لقد عرفت قبل أن أعرف أنها ما كانت لتجد أمنها معى حتى فى الطريق .

ذلك الطريق المفضى إلى بيت شوكت الأنصارى حيث يسكن الآن الدكتور روزنبرج وابنته ديبوراه . هو طريق سارة فى زيارتها إليهم . قالوا لها إن ديبوراه تحتاج إلى صديقة . ليست خادمة ولا وصيفة ، لا شأن لى بهذه الألمانية الغبية ، أرادوا أن أذهب إليها لأسليها . كأنى بهلوان فى سيرك . لا أدرى لماذا الاهتمام الكبير بهذا الدكتور الألمانى . إنه لا يغادر مكتبه ابداً ، وإذا غادره كانت يده ممسكة بكتاب ، وهو صامت لا يتحدث أبداً ، اتعرف أنى لم أسمع صوته ولا مرة واحدة حتى الآن . أما ديبوراه فهى تتكلم بلا انقطاع ، أما إذا انطلقت فى الغناء تقول مع أمى أرحموا أورشليم ، كل شىء يكاد ينهار أمامك من هول هذا الغناء . أذناى تحب الموسيقى الشرقية . هذه هى موسيقانا ، أما موسيقاهم فهى ضجيج أوانى الطبيخ .. أحمد ما هذا الذى تفعله .. أنت لاتسمعنى .. يامجنون لا تفعل هذا .. لست زوجتك .. أتزوجك .. لا .. مستحيل .. لماذا .. لا أدرى .. لم أفكر أبدا فى الزواج من مسلم . لست متدينة كما تتصور ولكننى هكذا .. أريد أن أشعر بالاطمئنان .. لن أطمئن أبداً معك .. أحمد .. أحمد .. عيناها مرحتان فيهما شقاوة كل بنات الأرض ، عيون ماء مسكر تفيض فى فمى ونحن نختفى بين أشجار برتقال والسماء تحيط بنا وضياء بين السحاب تبحلق فينا ، تراقبنا وتنتظر ما الذى يثمره هذا اللقاء الآخر بين ذكر وأنثى فى عالم البشر ، لن أتزوجك لأنى حائرة لا ليس الأمر يهم من ناحية الدين فأولادى ملكى .. أولادى ينتمون إلىّ ، مادخلك أنت .. الأب ليس هو الذى ينجب . إنهم يخرجون من بطنى . ويعلو صوتها ويحتد وتتكلم بثقة كما لو كانت تعرف عن يقين ما تقول . عندما يخرج الولد من رحمى فهذا يعنى أنه خرج من رحمى ، خرج من جسمى من دنياى ، أنا

التي صنعته ، أما الأب فليس هناك من يؤكد لك مائة في المائة أنه الأب الحقيقي . الشرف .. نعم هذا مطلوب ، ولكنه ليس ملك البشر جميعاً الجميع مذنبون . هل تتعامل على أنه مستحيل أن تخونك أمراتك . مستحيل أن تخدعك ، مستحيل أن تلد ولداً ليس ولدك وتظن أنه ولدك الذي يحمل أسمك ويرث أموالك . هل تستطيع أن تقول إن هذا مستحيل ولا يمكن أن يحدث . هل تستطيع أن تقول انه لا يوجد في هذا العالم الواسع رجال مخدعون يعيشون مع أولاد ليسوا أولادهم ولكنهم واثقون تمام الثقة أنهم أولادهم .

الأم هي التي لاشك فيها . وهي التي تضع الولد . وهي التي تعطيه دينه كما أعطته حياته ، تغمض عينيها وتفتحهما بسرعة ، فهذا هو ماتفعله عندما تتضح الفكرة في رأسها . الآن أقول لك ، إني لا أتزوجك ، لأنك تظن أنك الأب الذي يملك كل شيء . يملك الولد واسمه ودينه . أليس هذا هو ما تفكر فيه ، نعم .. هذا ما اعرفه عنك وهذا هو ما أرفضه فيك . لن اسمح لك ان تنازعني أولادي . لن أطلب من سليمان أن يشطر الولد شطرين . لأنه لي ولي وحدي ، وهو يهودي كما أنا يهودية وسيظل يهودي كما أنا يهودية ماذا تريد يا أحمد .. أريد ولداً منك .. أريد أن أقدمه لك . وإصنعي به ما شئت ليكن ما يكون ، لا يهمني سوى أن اصنع معك هذه الحياة التي لا مفر من أن تكتمل بيننا . ليس هذا الوقت ، لكل شيء وقت .. نعم لابد أن تعرف أن لكل شيء وقتاً .. حتى الحب له وقت . فإذا مضى هذا الوقت ، فليكن ما يكون . لاشيء يبقى على حاله . لا ياسارة ، حبي باق ونهائي وابدي ، اقسم لك .. اقسم اقسم . إن القسم ليس هيناً ، إنه امتحان لشرف الرجال وإرادتهم . تضحك وترفع صوتها ، لا يهمها أن يسمعنا شراكسة الأنصاري ، أو أحد من عائلة روزنبرج يتجول صدفة في حدائقه . لايهمها شيء . لاتخاف ، وتندفع كما لو كانت اللحظة هي كل الحياة ، تقسم لتدخل جسدي ، هذا القسم ليس أكثر من مفتاح تريد أن تفتح به جسدي . الأمر عندك خطير ، أراه في عينيك ، أنت صادق هذه اللحظة ، كاذب بعد أن تنال بغيتك ، ولكنك الآن تعطي كل ما عندك .. فتعال .. تعال .. وخذ ولكن حذار .. خذ بمقدار حتى لا تفسد كل شيء .

فاجأتني ذات يوم وهي تلملم ثيابها ، هامسة بإنفعال غريب ، لو إنك كنت صادقا حقا لما كنت حذرا خائفا مرتجفا .

وصرخت ترد عليّ :

ـ ماقيمة احترامك لرغباتى ، لو كنت تحبنى لأخذتنى غصباً .

وهجمت عليها وقاومت بشراسة ، نشبت أظافرها فى لحم وجهى وقضمت أسنانها قطعة لحم من ذراعى ، ولو واصلت محاولتى لقتلتنى . سالت دمائى ، قبل أن تسيل دماء عذريتها .

كانت المعانى تقتحمنى بلا كلمات . فأعرفها بكلمات من عندى ، كأنى أعيرها ثيابا ترتديها مع أنى لست واثقاً أنها كانت لا تمانع فى أن تظل متجردة عارية .

كانت تلعب بى كما تشاء ، وقد سيطر جسدها على حواسى وعقلى ، واستولى على خيالى ، ولم أعد أفكر فى غير تلك اللحظات التى قد اختلسها وهى فى طريقها إلى بيت ديبوراه ، وكنت أذهب مع أبى إلى ذلك البيت أحمل معه بعض الأدوات وأصعد معه إلى السطح فينشغل أبى بعمله ، وأسرح بخيالى فى المروج والأشجار على مدى البصر ، أبحث عن سارة ، أو عن مكان يصلح لأن نختبىء فيه بعيداً عن الأنظار ، أفيق على صراخ أبى يشتمنى ويسبنى وقد ظن أنى بى مس أطار عقلى . ماالذى تنظر إليه ، ما الذى تبحث عنه ، ماالذى غيرك .

صاح فى وجهى ذات يوم : "إنها بنت شالوم" نزلت كلماته كمطرقة على رأسى اذهلتنى . لم يكن فى حاجة إلى أن يسمع اجابتى ، فقد فضحنى وجهى ، وارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة ، كل ما كان يعنينى منها ، أن تنبىء أنه لن يؤذينى ، وتكلم فكان فى صوته نبرة انفعال طيب ليس فيه شر ، كان يقول :

ـ نصحتك وحذرتك .. أتركها ابتعد عنها فمثلها ليس لك ، لن تعيش بيننا ، ولن تعرف الحياة معها بعيداً عنا ، أطرقت برأسى ، لا أريد أن أواجهه ، كأنى لو نظرت إلى الأرض لن أسمع ما يقوله ، ولن يرانى طالما لا أراه ، ارتفع صوته فى حماس ضاحكاً ساخراً ، أم تريد أن تتزوجها وتعيش حيث تذهب بكما الأقدار ، لا أنصحك بهذا .

هاهو يقترب منى ، يمد يده إلى كتفى ، أصابعه ثابتة ، ورجفة تسرى فى أوصالى ، لاتفسد صلتنا بأبيها ، هناك عمل كثير ينتظرنا ، ولو غضب منا فسيبحث عن آخرين يقومون بالعمل . إن هذا الرجل الذى اشترى

ضيعة الأنصارى لديه مال وهم يحترمونه وسوف يجلبون له من يصنع الصهاريج له حتى لو جاء من ألمانيا .

إمتدت أصابعه إلى شاربه يداعبه ، والتقت عيناى بعينيه كانت ابتسامته الغريبة قد أصبحت ماكرة وقال ساخراً . ولكنها ليست جميلة فى وجهها نمش ، وشعرها الأحمر يعنى أنها شعنونة متقلبة .

بعد أن استمعت إليه دخلت كلماته بينى وبين سارة حتى ولو لم اتذكرها . كانت هناك أشعر بها بين أصابعى وعلى طرف لسانى أشعر بها كما لو كانت سدادة تسد أذنى ، كما لو كانت غلالة شفافة تنسدل على عينى . أضعفت شبقى ، وهدأت من روعى . وأنا أواجه جسدها الذى تعود على اندفاعاتى الهوجاء المحمومة ، فأنتبهت إلى أن شيئا بيننا يتغير داخلى أو لعلها شعرت بهذه الغلالة التى انسدلت بيننا ، فسألتنى ماذا بى ، فلم تجد إجابة ، فعادت تسألنى لماذا أنا حزين ، قلت لها بعصبية أنى لست حزيناً . كانت عيناها مصوبتين نحوى ، تحومان حولى . تشقان مسارب إلى اعماقى ، ولكن هذه الغلالة كانت تعوقها ، أحاطتنى بذراعيها وهمست فى أذنى أنت يائس منى .. تريدنى ولكنك يائس من الحصول على ما تريده ، همست نعم .. وبالرغم منى طفرت دموع من عينى ، ظلت ترقبنى ، وصدرها ملتصق بصدرى ، يعلو ويهبط ، وأنفاسها تغلفنى بدفء تذوب معه كل الغلالات والأستار .

نظرت إليها ، كانت عيناها تبتسمان بانفعال ، وأنفها كسكين لامع يوشك أن ينفذ فى وجهى فيشق لحمى وأنفاسى ساخنة وأغمضت عينيها وتراجعت فنامت على الأرض فكانت سارة لى . ان ما حدث ليس شأن كبير ، فلم أمت ، ولم تنته حياتى ، ولم أغرق فى نشوة خارقة وكان الأجهاد أوضح ما بقى لى ، ولكنى شعرت أن الذى فى رأسى هو فضاء العالم كله بسماواته وآفاقه البعيدة وشطآن بحاره .

أخذت بعد هذا تكثر من الحديث عن نفسها عن جمالها عن أنوثتها . أنا لست فقط جميلة ، لا توجد من هى أجمل مني على هذه الأرض ، لم أر واحدة أجمل منى ، لم أتمن أن أحصل على جمال رأيته فى واحدة غيرى ، لاجمال الشعر ولا العينين ولا اليدين ولا الساقين .. ولا النهدين . لو قلت لك أنى رأيت واحدة جميلة فلا يعنى هذا أنى أغير منها ، أو أنى اعترف بأنها أجمل منى . عندك ديبوراه مثلا . أنها جميلة .

قلت لها بغير تفكير :

- صحيح .

فنظرت إلىّ نظرة عداء وقالت بسرعة :

- أنها لا تحبك ، وتنفر منك .

قلت بسرعة :

- وأنا لا أحبها .

وقالت فى حدة وهى تضغط على كلماتها :

- ولكنك تقول إنها جميلة .

قلت :

- أنت تقولين أيضاً إنها جميلة .

رفعت صوتها قائلة وهى تلكزنى فى كتفى .

- أنا وحدى التى تقول هذا توافقنى أو لا توافقنى ليس هذا المهم . المهم هو أنا وحدى التى تقول إذا كانت جميلة أم لا .. لأنى أنا جميلة ، وأجمل منها . الله صنع منى جمالا كاملا يليق به .

قلت اتحدى ما اسمعه . كانت تستفزنى :

- هل يعترف الناس أنك أجمل الجميلات .

صاحت :

- لا يهم سوى إحساسى أنا .. أهم شىء أن أحس بأنى جميلة أن اهتم بنفسى وأعرف أنى جميلة . هذا الإحساس هو الذى يجعل كل من ينظر إلىّ يعرف أنى جميلة .

ولكنها كانت تتابع ديبوراه باهتمام . ذات مرة قالت لى :

- شعرها حلو ، ولكنى سألت نفسى هل لو وضعت هذا الشعر على رأسى يكون لائقا بى . وقلت لنفسى بسرعة وبلا تردد لا .. لأن ربنا صنع لى شعرى خصيصا . هو الذى اختاره لى . أنا عندما أسير فى الطريق ، أو حتى وأنا فى المعبد أو إذا دخلت دكانا أشعر أن لوجودى تأثيره ، أشعر أن جمالى موهبة وأنى ممتازة .

قلت لها :

ـ أريد أن أخرج معك ، أسير معك فى شوارع القدس .

قالت بسرعة :

ـ تعال نخرج مع داود ، غدا سيكون هناك حفل كبير فى مدرسة ايفليلينا روتشلد سنقف على الرصيف ونتفرج على الناس أثناء دخولهم سترى سيدات فى أفخر الملابس ورجالا يرتدون ملابس جميلة ، وأتحداك ، إذا لم يلووا أعناقهم ليروني وقد بهرهم جمالى .

صحت :

ـ أنت مجنونة . هل تريدين استعراض جمالك فى الطرقات .

قالت :

ـ هذا الجمال يجب أن يراه الناس . كل العيون تعجب به .

قلت :

ـ هل يرضيك أن ينظر الناس إلى جسدك ؟

هتفت :

ـ نعم . لم أحرمهم من رؤية ما صنعه الله ؟!

ثم قالت بوقاحة ما كنت أتصور أنها قادرة عليها .

ـ وكل من أراه ، أحاول أن أتخيله ، وأنا معه ، مثلما أنا معك الآن .

صحت :

ـ أنت فاجرة .

فغضبت وقالت وقد أحمر وجهها :

ـ لا تقل هذه الكلمة أبدا . لا تجعلها ترد على لسانك .

وارتفع صدرها بغضب يتصاعد وصاحت بين أسنانها: ـ سوف تندم لأنك قلت هذا .

لم أذهب معها إلى حفل ايفليلينا ، ولكنها ذهبت ، وحكت لى عن تلك المظاهرة عند بوابة دمشق أمام مبانى الحكومة ، وانطلقت رصاصة قتلت الكونستابل الانجليزى فى جبل سكوبس . كل يوم مظاهرة . بالأمس تجمع

سكان الحى وطافوا على الحوانيت ليتأكدوا من اغلاقها . غدا سوف يهاجمون صحيفة تعمل يوم السبت . كيف تزعم أنها صحيفة يهودية وتعمل يوم السبت .

قلت لها :

ـ اتهتمين بهذه الأمور .

قالت بسرعة :

ـ اتسلى ، لا أريد أن تنتهى حياتى على أريكة مثل أمى أنها لا تتحرك أبدا ، تحتاج الى ونش يرفعها من مكانها إلى السرير . هى لا تتحرك ، فلابد أن أتحرك . لسانها لا يكف عن الكلام ، وجسمى لا يكف عن الحركة تلبية لطلباتها . لماذا لا أتحرك أنا أيضاً . كانوا يسيرون أمام بيتنا ، حذرت أمى داود أن يخرج وكان أبى قد أغلق دكانه ، وذهب إلى حجرته وتسللت خارج البيت ، كانت العيون تنظر إلىّ ، وكنت أشعر بالنظرات مبهورة . على فكرة النساء ينتبهن إلى الجمال ويتأثرون به قبل الرجال . نعم هناك بينهن من يتغزلن فى جمالى . شعرت بنشوة ، وكدت أسير وراءهم وأشترك فى المظاهرة بدلا من داود وأبى . لن يقال أننا خائفون لا نتحرك .

ـ مالذى تريدينه ياسارة .

ـ لا أدرى . ولكنى أستطيع أن أقول أنى أريد أشياء كثيرة .

قلت :

ـ مثل ماذا . ربما استطيع أن أجلب لك بعضها .

ابتسمت ساخرة :

ـ انت . مستحيل . إن ما أريده اكثر بكثير مما تحلم ؟

ـ ماهو . أحلم معك أنا أيضاً ..

ـ أنت تحلم ؟

وتزداد سخرية :

ـ هل هناك شىء آخر غيرى تحلم به ..

ـ أبدا .. أبدا ..

همست :

ـ ولكنك لست كل ما أريده . أنا كل شىء بالنسبة لك . وأنت مجرد شحاذ يقف على بابى أتصدق عليه .

قلت غاضبا :

ـ لا أقبل كلمة شحاذ ، سوف تندمين على هذه الكلمة .

قالت ضاحكة :

ـ أنت تقلدنى ، ولكنك لا تجيد التقليد .

وجذبتنى إليها . كانت تعرف أنها تستطيع أن تسيطر علىّ فى أية لحظة فاتوه فى جسد من سلكه لا يعود منه .

وجاء ذلك اليوم المطير وأنا أذرع الطريق لا أشعر بالماء يبللنى ، لا أكاد أدرك أنى أغرق ، ولا شىء فى خاطرى سوى أن أراها ، وإذا بسيارة روزنبرج الجديدة الخضراء تمر وتتخطانى ، وأراها ترقبنى من خلف زجاج السيارة التى يقودها الدكتور روزنبرج ، لم يبد على وجهها شىء ، كأنى إنسان نكرة ، أما الدكتور فما فكر لحظة واحدة أن يقف وأن يسألنى إذا كنت أحتاج لمساعدة ، وتابعت السيارة وهى تبتعد وقلبى يخفق ، وأدهشنى أنى أحدق فى السيارة كما لو كانت وحشاً نجوت من افتراسه ، ولكنى أتألم لابتعاده ، وغضبت منها ، ولعنت اليوم الذى رأيتها فيه لأول مرة ، ولعنت داود وشوكت الأنصارى ولعنت نفسى ، ولكنى أسرعت أنتظرها فى اليوم التالى وكان المطر قد انقطع ، وما كدت أراها أمامى ، حتى هجمت عليها ، أمسكت بذراعيها بقوة لتتألم فواجهتنى بعينين فيهما نظرة متألقة ظافرة ، وصاحت ساخرة :

ـ يامسكين كان منظرك يدعو للرثاء .

صحت ..

ـ اتسخرين منى .

قالت فجأة فى خوف :

ـ أبداً .. أبداً ..

فصحت وأنا أهزها غاضباً :

ـ لا تفعلى ذلك مرة ثانية .

قالت فى خضوع :

ـ لن أفعل .

وصدقتها .. وقلت فى ثقة :

ـ سوف يعلم الجميع بحبنا ، وسوف يقبلونه ، ولن يجرؤ أحد على الاعتراض عليه .

همست فجأة ..

ـ هناك أشياء أخرى لا تعلمها :

قاطعتها بانفعال ..

ـ أى أشياء .

قالت بصوت خافت كأنها تخشى أن يسمعها أحد :

ـ هناك راشيل .

وشهقت ، كما لو كانت تبحث عن هواء تستنشقه ..

راشيل .. راشيل .. وليس أهلها ولا أهلى ، وليس ما كان بينى وبينها : ولكنها راشيل هادمة اللذات ومفرقة الأحباب .

٨

واحدة من هذه الشهقات سوف تسلم روحى مثل تلك الشهقة التى عصفت بى وانتزعت سارة من بين ضلوعى . كانت تحكى لى عن تلك السيدة التى اسمها راشيل بدهشة أول الأمر ، كانت تتحدث وهى تفكر بصوت مرتفع ، ولم أدرك حتى فات الأوان أنها كانت تقاومنى وتعمل على الخلاص منى ، وأنها ما كانت تردد اسم راشيل وتروى عنها الحكايات إلا كتعويذة تطلقها فتطردنى من حياتها .

جاءت راشيل من روسيا . وكان يوم زيارتها لبيارات الدكتور روزنبرج حدثا تنبه له الجميع ، فقد انتشر أولاد فى الثامنة عشرة أو أصغر من ذلك فى الطريق بين البركة وبيت الأنصارى . وجاء رتل من السيارات السوداء يثير غبارا كثيفا فى الطريق ، وفى صباح ذلك اليوم ذهبت على عجل مع أبى لمعالجة تسرب الماء من الصهريج الصغير الذى أقمناه فوق الحجرات التى شهدت الشراكسة يضعون الحجارة فى الصناديق المزركشة لإيهامنا بأن جمال الأنصارى تحمل كنوزا من ذهب .. خفق قلبى وأنا أهبط إلى السرداب لأتابع ماسورة مياه وكان ورائى واحد من هؤلاء الشبان الغرباء لا يتكلم العربية . وكان يتابعنى بنظراته ، وتقدمت على الرغم منى أريد أن أفتح باب الحجرة التى كان بها الشراكسة . وقد استولت الذكريات على مشاعرى حتى أيقنت أنهم وراء الباب مازالوا يكدسون الحجارة فى الصناديق ، لولا أنى سمعت صوت الشاب يتحدث بلغة لا أفهمها . وكان الباب موصدا . وكان قد اقترب منى يلاحقنى بأسئلة تكشف عنها نظراته وارتبكت ، فلا أدرى كيف أفسر له تلك الحركة الغريبة التى بدرت منى وما كانت أعلم أنه سيجىء وقت أتمنى فيه لو أضحى بحياتى من أجل أن أصل إلى هذا المكان وأفتح هذه الأبواب لأفجر ما بها من قنابل وديناميت ، وأهدم هذا المكان بمن فيه لينهار أنقاضا فوق جسدى .

كان الدكتور روزنبرج وزوجته وابنته فى انتظار تلك السيدة القصيرة الحجم صاحبة الوجه الأبيض المستدير تحيط به هالة من الشعر القصير

الأسود لها عينان سوداوان تشعان جاذبية ، فيهما حدة وحيوية .

قالت لى سارة :

ـ رأتنى وأنا أقف مبتعدة ، وكانت تسير بجوار الدكتور روزنبرج الذى كان يعاملها باحترام . فوجهت إلىّ نظراتها الحادة الفاحصة وتقدمت منى وأنا مبهورة وقالت لى بلهجة عصبية ولكنة أجنبية :

ـ أنت من فلسطين :

أجابت سارة وهى مبهورة :

ـ نعـم !

فرفعت صوتها تخاطب الجميع ..

ـ أنظروا كيف تقف مبتعدة .. هكذا تعودوا فى هذه البلاد ، الرجال منعزلون تماما عن النساء .. البنات مفروض عليهم الحبس فى حريم الشرق ، وهذا ما لابد من تغييرة .

وربتت على كتف سارة وقالت لها :

ـ كفاك حظا أنك ولدت هنا .. فغيرك يدفع حياته ثمنا للوصول إلى هذه الأرض .

كانت سارة تحاول أن تفهم ، تريد أن تسيطر على مشاعر غامضة قد انتابتها ، لقد قابلت امرأة ليست مثل نساء بلدنا . لا تعرف الخضوع ولا تخشى الرجال ، ليست كومة من اللحم والشحم فى انتظار رجل ينهشها أو يلفظها كما يشاء .. امرأة تريد أن تغير ما حولها ، ليست صامتة منعزلة مثل زوجة الدكتور روزنبرج ، فعندما قابلت سارة فى اليوم التالى وهى تلعب مع ديبوراه ، نادتها وسألتها عن أهلها .. تصور أنى وجدت نفسى أحكى لها عن أبى وأمى وداود ، حكيت لها عن كل شىء ما عدا شيئا واحدا .

ونظرت إلىّ نظرة غريبة .

فسألتها :

ـ ماهو هذا الشىء :

همست :

ـ أنت .. كيف أحكى لها عن علاقتى بك ؟

قلت متعالما :

ـ الأجانب لا يعترضون على مثل هذه العلاقة .

قالت بعصبية :

ـ يخيل إلىّ لو أنها عرفت سوف ..

وسكتت ، فلما ألححت عليها أن تكمل قالت :

ـ تقتلك ..

ضحكت ساخرا :

ـ لماذا .. ؟

قالت :

ـ إنها جادة تريد أن تعلمنا أعمال الرجال .. تصور .. حتى حراسة المزرعة .

قلت ساخرا :

ـ تقومون بأعمال الشراكسة .. ؟ نحن نرحب بذلك .

قلتها وقلبى الذى ينزف الدم الآن .. يتفجر بضحكات صاخبة هازئة .. من الفتيات الشراكسة.لم يخطر ببالى أن تتحول الأنثى الناعمة إلى أفعى شرسة مقاتلة ، لم يدر بخلدى أن هذه الأيدى الرقيقة اللينة ، سوف تقبض على الخناجر تغمدها فى بطون النساء ، وتمزق الأجنة وتتوضأ بالدم الطاهر لأطفال أبرياء .

انشغلت عن هذه الخواطر التى هى حقائق اليوم بحكايات سارة عن بنات خالها يوسف ، وكيف اهتمت راشيل بكل ماقالته عنهن .. كنا نسير وقد احاطت بخصرى بين الأشجار وسألتنى عن البنات فى عائلتى . وتركتنى اتحدث وهى تميل معى فى مشيتها ، صدقنى جاءت لحظة خشيت فيها ان تكون لهذه المرأة اغراض خاصة ، اتفهمنى . ان تكون واحدة من إياهن .

قلت لسارة ساخرا :

ـ امرأة شاذة .. امرأة رجل .
قالت ضاحكة .
ـ هذا هو ماخشيته ، ولكن سرعان ماتبدد هذا الظن .
فقاطعتها متمسكا بسخريتى .
ـ وخاب ظنك .
فلكزتنى مازحة :
ـ لم يخب ظنى إلا فيك .

لقد سارت راشيل مع سارة فى نفس الأماكن التى أعتدنا أن نسير فيها معا ، وكانتا وحدهما ، ولكن حيث كان لقاء الجسد بالجسد بينى وبين سارة . كانت راشيل مشغولة بأشياء أخرى . تريد أن تعرف تفاصيل حياة سارة ، تفاصيل حياة اولاد خالها يوسف . قالت لها سارة .. انهم يتحدثون عن الملابس وعن الذهب والأساور والأقراط والخلاخيل ويتحدثون عن الطعام . وقالت لها إنهم يتحدثون عن العرسان فالمرأة للرجل أليس كذلك .

أنصتت راشيل إلى كلمات سارة باهتمام غير عادى ، وفجأة تنهدت وجذبتها من يدها وأسرعت بها مندفعة إلى داخل البيت ، ودخلت على الدكتور روزنبرج وهى تضغط بأصابع يدها بقوة على أصابع سارة وقالت :
ـ من أجل هذه الفتاة ومئات غيرها لابد أن ترضى يادكتور روزنبرج .

يرضى بماذا ؟ يرضى بأن يفسد سارة . هذا ماقالته أمها وهى تولول فيما بعد . إن الاحتكاك بأمثال راشيل هذه أفسد البنات .. أما الدكتور روزنبرج فقد قال إن الذى تطلبه السيدة راشيل لايصلح مع البنات الشرقيات فصرخت تتحداه .
ـ سوف يخرجن من المطبخ لزراعة الخضراوات التى يحتجن إليها فى المطبخ . وسوف يفلحن الأرض ليجنين الخضراوات والفاكهة ، وسوف يتدربن على السلاح لحراسة الأرض .
صاح روزنبرج :
ـ هذا كلام خيالى .
فهتفت راشيل تتحداه :
ـ هذا هو أقل مايجب أن تقدمه فتاة تعيش هنا .. انهن محظوظات إذ ولدن فى هذه الأرض .

أرادت راشيل أن تؤجر الضيعة للبنات تجمعهن من البيوت الشرقية

ليتحولن الى فتيات صالحات لبناء مجتمعهن الجديد .
- تصور يا أحمد ان سارة تعمل فلاحة فى الأرض .
قلت لها :
- شقيقتي سعاد ترعى الغنم .. وأمى تقوم بأضعاف عمل فلاحة فى الأرض .
ضحكت وقالت :
- ماذا تقول أمى لو سمعت هذا الكلام . ماذا تقول البا او جابى أو بنات عشوش جيراننا . كل واحدة منهن مثل البقرة ، ليس فى رأسها شىء غير العريس الذى تنتظره وتحلم به . ولاتكاد ترى شيئا غير نفسها ، جابى هذه لاتفعل شيئا على الاطلاق . اهم اعمالها كل يوم هو ان تنظر فى المرآة وتتزين وتسأل المرآة كل دقيقة . هل انا أجمل أم سارة . انها تغير منى ، لأنى لاابذل اى جهد لأتجمل . والآن هاهى تلك المرآة تريد ان تجعل منى فلاحة أو عاملة فى مزرعة .
قلت لها بسذاجة لاأدرى كيف احتوتنى :
- العمل فى المزرعة فكرة مدهشة . ستكونين قريبة منى .. وسأراك يوميا بين الحقول .
هتفت .
- انت لاتفكر إلا فى نفسك ورغباتك .
ولمعت عيناها وهى تقول :
- كل هذا مجرد أحلام .
- همست .
- لماذا ؟
أجابت :
- لأن الدكتور روزنبرج غير موافق على المشروع . يقول ان البنات سوف يفسدن المزرعة وسوف يتعرض لخسارة كبيرة بلا مبرر . حتى أنه سأل راشيل امامى . هل انت مستعدة لتعويضى عن الخسارة التى لابد ان تلحق بى .. وكان ينظر الىّ كأنه يوجه الىّ الكلام وهى ولاشك أول مرة أراه يعاملنى بهذا الاهتمام . قال لى .. أريد أن اسمع منك بصراحة ياسارة هل أنت مهتمة بأن تكونى فلاحة ؟
بالطبع كنت أريد أن أجيب بانى لاأريد أن أكون فلاحة . ولكننى كنت

واثقة أن مثل هذه الاجابة سوف تغضب « راشيل » سوف تصدمها ، فكأن اهتمامها بى لم يجد من جانبى سوى الجحود ، مع انها هى التى اثارت كل هذا الاهتمام بى . لذلك اجبت على الدكتور بانى لااعرف حقيقة ماذا أريد . قلت إنى محتارة . ولم تكن راشيل تنتظر غير هذه الاجابة . إذ تدخلت على الفور وصاحت بحدة لم أكن اتوقعها . ولكنها ليست غريبة عنها ، الا تسمع انها محتارة .. كيف تعرف هذه الفتاة الشرقية ما الذى يجب ان نفعله .. وهنا قال لها الدكتور « هذا هو ما أعنيه تماما .. انها شرقية لها تقاليدها وطباعها وهى ليست مثلنا »

ونظرت إلىّ سارة قائلة :

ـ إنه يعتقد انه نوع آخر من البشر .. وأنا لست مثله .

قلت لها :

ـ لانك مثلى .

فصاحت على الفور ساخرة :

ـ لا .. ولاأنت مثلى .

وأضافت فجأة بلهجة غريبة .

ـ انا يهودية .. ونحن اقلية .

وارتفع صوتها فى حماس مفاجىء .. راشيل تدافع عنى .. ترى انى بنت هذه الأرض وانا اصلب عودا من الآخرين .. انا افضل من ديبوراه .

وامسكت سارة بيدى تضغط عليها وقد نسيت نفسها .

ـ كم احببت راشيل .. صدقنى أنا احبها .. كلها حماس وحيوية . انها امرأة من نوع آخر . وأنا واثقة إنها ستنجح فى مشروعها وسوف تحصل من الوكالة على المبالغ اللازمة لتعويض الدكتور روزنبرج عن خسائره . طبعا ستكون هناك خسارة . لاننا لانعرف شيئا عن الفلاحة .

قاطعتها ساخرا من كل شىء :

ـ الآن تريدين الأرض ...ظننتك تتحولين الى شركسية فاذا بك تريدين ان تأخذى مكان الأنصارى .

سألتنى لدهشتى :

ـ من هو الأنصارى ؟

قلت لها وقلبى ينبض بقوة دهشة ممزوجة بحسرة وغضب .

ـ لك الحق فى أن تسألى .. إنه الرجل الذى هرب من الأرض . أى كلام هذا .. اى تخريف سمعته .. سارة الفلاحة . سارة تعمل فى

مزرعة روزنبرج أجمل بنات الأرض التى خلقها ربها على أكمل وجه تهجر الجمال والأنوثة لتعمل فلاحة ، هذه نكبة . وكل هذا الذى اسمعه من سارة لغو وتضييع وقت لاطائل من ورائه ، كل فائدته ان تظهر اهتماما زائدا بنفسها وكأنها محور الكون . ولكن شيئا لن يتغير . وها نحن نسير بين الاشجار وأجذبها فيلتصق جسدانا ، وأشعر بالحب دافئا فى عروقى ، وأعتصرها بين ذراعى ثم تفلت منى قبل أن تختفى فى المزرعة .

ولكنها اختفت بعد هذا اللقاء الأخير . لم اعد أراها . ومرت أيام وأنا انتظرها ذاهبة إلى الضيعة لزيارة ديبوراه أو خارجة بعد الزيارة . ولكنها اختفت من على ظهر الأرض ، وجننت ، وقضيت ساعات محموما انتظر فى الطريق الى المزرعة اتمنى لو آراها ، عيناى تفتشان عنها بين الأشجار بين السحاب فى السماء ، بين فروع الأغصان ، وأذناى تسترقان السمع الى صوت اقدامها فى حفيف الشجر وصوت الطيور وجسدى يناديها فكل مسام جلدى مفتحة شرهة لكل مايقابلها لعلها تلتقى على نحو ما بسارة ولابد ان رغبتى كانت من القوة . حتى استجابت لها الأقدار . فإذا بها أمامى قادمة فى الطريق ، ولو كانت تأخرت قليلا لجننت أو أقدمت على تصرف أحمق . أو لعلى كنت قد قتلت نفسى .. وأندفعت إليها ، أندفعت إلى سارة وقد رأيتها أمامى ، جريت لاهثا لا أرى أمامى غيرها ، حتى لم يبق بينى وبينها سوى خطوات . وفجأة رأيت الذى أمامى هو داود . جاء لدهشتى يسأل عن سارة . لقد اصطنع عقلى رؤية سارة لينقذنى . كما يصطنع السراب للعطشان والتائه فى الصحراء .

قال لى داود وأنا لاأكاد أفهم مايقوله إن سارة تغيبت بغير إذن فى بيت روزنبرج . وأن أمه توشك أن تجن .

سألت بعد لحظة ذهول :

ـ ماذا حدث لها ياداود .

كان وجهه حائرا محتقنا ، لايريد أن يتكلم . سرت معه ، لاأدرى ما الذى جعلنى لاأفارقه ، لعل سارة تظهر فجأة من بين ضلوعه . ولم نكف عن السير حتى وصلنا إلى القدس وسمعنا صوت يوسف ينادى وسأل داود بلهفة .

ـ هل وجدتها ؟

قال داود :

ـ نعم .

فعاد يسأل :

ـ ولماذا لم تأت معك ؟

قال داود بصوت متعب :

ـ رفضت .

ونظر إلىّ يوسف وسألنى :

ـ انت من هناك ؟

قلت دون أن أفهم ماذا يعنى بالضبط .

ـ نعم .

فعاد يسألنى .

ـ هل دخلت البيت ؟

ـ أجبت .

ـ نعم .

فسألنى بدهشة .

ـ كيف ؟

قلت .

لأصلح الصهاريج .

والتفت يوسف إلى داود قائلا :

ـ الجميع يذهبون إلى هناك .. العرب .. والشبان المهاجرون .. هذا يفسد البنات هذه فوضى .

كان غاضبا خائفا على بناته لايريد لهن مصير سارة التى نالت منها الفضيحة وداود يتألم ويكبت مشاعره بصعوبة .

قلت له نحن نلعب فى تلك الأيام التى قضيناها فى إقامة الصهريج الكبير .

ـ مارأيك لو تزوجت شقيقتك ؟

كان يحكى عن مشاكلها مع أمه . فتقدمت باقتراحى كما لو كنت أقول له مارأيك لو خلصتكم منها . أطرق برأسه ثم رفعها وسألنى بصوت هادىء فاجع .

ـ هل ترضى أن أتزوج أنا شقيقتك ؟

صدمتنى كلماته ، واندفع الدم إلى رأسى ، ووقفت ذاهلا ياإلهى أيمكن أن يكون بين داود وسعاد مثل مابينى وبين سارة واستدار مبتعدا فى

طريقه إلى بيته فى القدس . وجلست على حافة الطريق أفكر فى سعاد أهى كانت ترفض الزواج من مختار العجوز لأنها تريد الزواج من ولد مثل داود . مستحيل أن الأفكار الخرقاء والخيالات الجنونية تهاجمنى وتتسلل إلي بوقاحة وجرأة لانظير لهما وجريت لاهثا الى شجرة الزيتون ، حيث كانت سعاد ترعى وحدها . ماأدرانى أن داود كان يذهب إليها .

هجمت عليها :

ـ لماذا تبكين ؟

قالت لدهشتى :

ـ انا لاأبكى .

قلت كالمجنون :

ـ أنت تبكين لأنك ترفضين الزواج من مختار العجوز .

قالت :

ـ لاأحبه .

ثم أردفت :

ـ ولكنى لا أبكى الآن . ماذا دهاك ؟

صرخت فى وجهها وقد تملكنى انفعال مجنون :

ـ هل هناك اخر تهتمين به ؟

لم أجرؤ أن أقول « اخر تحبينه » لو كنت ذكرتها على لسانى كان لابد أن تلها ، كلمة زائدة منى ، أو كلمة منها ويراق الدم .

ـ تكلمى وإلا قتلتك .

سألتنى فى خوف :

ماذا تقصد ؟

صرخت :

ـ أقصد ما أقصده .

وفجأة وجدتها تبتسم ، ونظرت إلىّ باشفاق وقد تخلى عنها الخوف تماما ، وعاد لصوتها كل قوته .

وقالت :

ـ أنت الذى يحب تلك اليهودية . لقد ذهبت بعقلك ولا أمل فى شفائك اسمع . لو تركت نفسك لهذا العشق قتلك بعد أن يذهب بعقلك .

ادرت لها ظهرى ومشيت لاأريد أن أسمع ماتقوله لاأريد أن أسمع أو أرى أو أتنفس . لاأريد أن أحيا حتى تظهر لى سارة التى انتظرها ولاتجىء .

أما سعاد فقد اختفت لتهرب من الزواج من مختار العجوز ولكنها لجأت إلى المكان التى تعرف جيدا اننا سنذهب إليه بحثا عنها. كان لجوءا أكثر منه هربا ، احتمت بشجرة الزيتون التى ظنت انها قد تحميها من عدوان مختار العجوز فذهب شقيقاى الكبيران وضرباها ، أمى تقول البنت كالشجرة إذا كسرت لها ضلع ظهر آخر مكانه . وبهذا الاعتقاد هاجمها مروان وحسان . كف مروان تهوى بها إلى الأرض صارخة . فترفعها يد حسان من الأرض لتسقطها كف مروان من جديد . كان لابدّ من أن تصرخ ويسيل دمها ، وأن تظل تسقط وتنزف حتى يتجمع الناس يتشفعون ويحتجون ويستنكرون ، لأنه من الضرورى أن يثبت للجميع أن أحدا لايستطيع أن يخرج على طاعة أبى . وبقدر ماصرخت ونزفت كانت ليلة زفافها صاخبة بالغناء والرقص . وكان الفرح كله ضجيجا وحيوية ولكن سعاد ظلت حزينة ولسوف يظل الحزن فى عينيها بعد ذلك لايفارقهما وسوف يرى أولادها الحزن ولن يعرفوا سعاد التى كانت تضحك وتسخر وتصيح ولو .. هذا هو الرجل الذى أريده القوى الذى يعرف الرحمة لا النذل الذى لايجلب سوى الشقاء والعار .. لقد اختفت سارة . فلما وجدناها كان فى يدها خنجر يقطر دما . واختفت سعاد فما وجدناها . ياإلهى اتكون بطنها مبقورة وجنينها ممزق الاعضاء ودماؤها خضاب يدى سارة .. ياإلهى لقد اصبح القوى امرأة لاتعرف الرحمة والنذل هو الذى يعرف كيف يجلب لنفسه الراحة والدعة والملل .

٩

هؤلاء الذين يقفون فى انتظار سقوطى جثة هامدة اصحاب خبرة فى الافادة من الموت وسقوط الجثث . سواء كانت جثث بشر أو أى جثث أخرى . مثل جثة الجمل التى فوجئت بها قريتنا صباح يوم فى مياه البركة الطاهرة .

انتشر الهلع فى صدورنا وتطلعت العيون إلى السماء تسأل ما الحكمة فى إفساد ماء طاهر ، وكيف رضيت السماء بوقوع هذا الجرم الذى نجس الماء فكأنه نجس كل شىء فى حياة القرية . كان يوم مصيبة . ارتفعت الصرخات واشتد الضجيج والعويل . من الذى قتل هذا الجمل ومن الذى تجرأ فسحب جثته وألقى بها فى البركة . من أراد ان يلوث الماء وينجسه . المسلمون فعلوا هذا حتى يحرموا اليهود من الوضوء بماء البركة . لن يأتى اليهود ليغتسلوا بمائها .. كذب افتراء .. من يريد أن يمنع اليهود من القدوم إلى البركة . الماء الطاهر يجذبهم إليها . فتستقبلهم هناك نساء قريتنا بما يبيعونه .. البيض والدجاج والخبز وكل مايريدونه من خضراوات بأسعار تنافس أسعار أسواق القدس ، عيون النساء باكية ذاهلة والاقفاص لم تمتد لها يد ببيع أو شراء . وماذا تكون عليها الحال بعد اليوم . أهذه هى نهاية البركة والماء الطاهر والسوق . كان أبى ينصت إلى رجال يطلبون منه أن يذهب مع مختار العجوز زوج شقيقتى إلى الدكتور روزنبرج ويبحثا معه الأمر . وهو لابد واحد من هؤلاء الشبان الغرباء الذين تكاثروا فى الآونة الأخيرة واقاموا داخل أسوار الضيعة .. وقال آخرون : لابد أولا من تهدئة الزبائن اليهود القادمين من القدس . وقال أبى إنه ذاهب للقاء شالوم سوف يعرف رأيه . ذهبت مع ابى ، فرأينا تجمعا غير عادى فى المعبد ، اليهودى بجوار دكان شالوم . الذى قابلنا منفعلا وقال : ان الجميع أعصابهم ثائرة . حتى الحاخام لم يستطع أن يذبح دجاجة واحدة ذبحا حلالا . فيده ترتعش على الرغم منه وقال لأبى بسخرية حزينة إنه يستطيع

أن يأخذ مايشاء من هذا الدجاج بثمن بخس .
قال أبى ضاحكا :
- ربك وربى واحد . أما قضية عذاب الدجاجة فهذه مسألة أخرى ، فالأمر يتوقف على النية الخالصة .
فتمتم شالوم حزينا .
- نعم .. النية الخالصة .. أين هى ؟
قال أبى :
- لابد منها لدرء هذا البلاء الذى أفسد الماء الطاهر فى البركة .. تلفت شالوم حوله .. كأنه يريد أن يتأكد أن أحدا لايسمع ماسوف يقوله سوى جدران الدكان والساعات . وقال بلهجة عصبية :
- نحن نعرف من الذى فعل هذا . إنهم ليسوا المسلمين .
قاطعه أبى :
- الحمد لله .. أنتم تعرفون هذا ..
قال شالوم :
- إنهم أولئك الأولاد الذين يتجمعون فى مزرعة روزنبرج .
سأل أبى فى ألم :
- لماذا ؟ .
أجاب شالوم قبل أن يسمع بقية السؤال .
- يريدون ماء البركة سيحولونه للزراعة .. يريدون تعديل مسار الطريق .
قال أبى بدهشة :
- كيف يعدلون مسار الطريق .. لانعرف غيره منذ نشأنا ..
وارتفع صوته هادرا وكأنه يتبين فداحة مايرتكبونه على نحو مخيف .
- هذه البركة ليست ملكا لهم ..
قال شالوم بسرعة وانفعال:
- وابنتى سارة ليست ملكا لهم .. لقد اخذوها منى .
وجف قلبى لسماع اسمها
ولكنى بلا حول ولاقوة .. أراهم ممسكين ببنادقهم خلف الاسوار الشائكة ..
عرفنا الحقيقة ، هاهى امامنا ، تواجهنا ، فماذا نستطيع أن نفعل لصدها ، ما الذى فى ايدينا لقد تعودنا أن نخضع .. أن نطيع وهاهم الشراكسة اصحاب السياط المسلطة علينا يفقدون وظيفتهم . كانوا يخضعوننا بدعوى

حمايتنا .. ولكننا اليوم لا نجد من يحمينا ، ولانعرف كيف نحمى انفسنا ، وها الشراكسة يتجمعون فى المقهى غاضبين . والرجال يتوقعون الشر ، فلابد أن تحدث معركة بين الشراكسة وهؤلاء الشبان الجدد . ومختار العجوز يعود من زيارة الدكتور روزنبرج راكبا إحدى سيارات المزرعة ، لم تعد البغال والخيول صاحبة كلمة ، اختفت الخيول التى يركبها الشراكسة ، وظهرت عربات كثيرة . ومختار العجوز يردد باسما ان لديه انباء سارة سوف يذيعها فى حينها . ولكنى أيها الرجال مطمئن تماما للموقف . لقد تأكد للجميع ان الذين ارتكبوا جريمة الجمل هم الشراكسة للايقاع بيننا وبين اليهود ، ولكن هذا لن يحدث أبدا فى قريتنا . إننا نتعامل معهم ، حتى نساءنا يعرفن لغتهم .. والعلاقة بيننا ليس هناك افضل منها ، إن ابا مروان هو الذى صنع لهم الصهاريج التى تمدهم بالماء . وهم لم يتأخروا عنا فى مال او مساعدة نريدها ، ولم يبق إلا أن نتخلص من هؤلاء الشراكسة الملاعين .

صاح صوت منذ ان سمعته وصداه لم يزل له اثار باقية فى اذنى :

ـ الشراكسة مسلمون مثلنا .

رد عليه مختار العجوز غاضبا :-انهم طغاة أرازل ، لا يعرفون الاسلام .

قال نفس الصوت :

ـ لن نضحى بهم ليحكمنا اليهود .

قال مختار العجوز :

ـ لن يحكمنا اليهود ، أما هؤلاء الشراكسة فما عادوا يحكمون .. وليس فى وجودهم نفع .. ولا نتوقع منهم سوى الشر ..

ولقى مختار ترحيبا طغى على اعتراضات ذلك الصوت الذى لا أستطيع ان اتبين وجه صاحبه .. فقد اصبح الرجال يسخرون من الشراكسة ويتحدثون عنهم شامتين ويتضاحكون ويتغامزون وهم يذكرون حالة الرعب التى انتابت اليهود عندما رأوا جثة الجمل الميت .. ويتحدثون عن غباء الشراكسة الذين افتعلوا هذه الجريمة ، وذاعت القصص والحكايات عن الجمل . فلا احد يعرف من أين جاء .. ولكن الرواية الراجحة ان احد الأعراب باع الجمل للشراكسة ليقتلوه ويستخدموه فى إرهاب الناس .. وليطلبوا منهم البقاء لحمايتهم .

لماذا لانعلن يا أبى ماسمعته من شالوم إن الشبان الأغراب هم الذين دبروا الجريمة ، لماذا لاتقول لهم الحقيقة ؟ ما الذى تخشاه ؟ مصالحك مع

الدكتور روزنبرج وعلاقاتك بمختار العجوز حتمت عليك ان تصمت ، لاتريد أن تتورط فىَ كلمة تضايقهم .. تريد أن تستمر فى عقد الصفقات مثل تلك العملية التى ستبدأها فى المعسكر الانجليزى ، انت تراهم يتكاثرون .. يبحثون عن أرض ومساكن وصهاريج . لايهمك أن جثة الجمل مقدمة لخاتمة تنتهى بجثثنا جميعا ، وهؤلاء الشبان الذين طردوا الشراكسة مقدمة لهذه الحشود التى تلتف حولى بعد ان حاصرت قريتنا وابادتها ، وتتمتع فى هذه اللحظة بسقوط جسدى ميتا . كانت مذبحة سقط فيها الشراكسة ، كان انتقاما بشعا ، فى تلك الليلة تقدم الرجال من الأسوار الشائكة ، قالوا : إن عددهم المائة رجل ، وقال اخرون : إن عددهم كان لايزيد على عشرة . كان الشتاء قد حول الأرض إلى وحل واختفى الآخرون فى دورهم ، وهناك صوت رعد يزلزل السماء . ولكنه رعد ليس كالرعد ، وفرقعة برق ولكنها ليست مثل أى برق . وصرخات طويلة مخيفة تشق ظلام الليل ، وتطفو فوق سطح العاصفة . والشتاء يهطل بينما صرخات الشراكسة تتهاوى مع ديارهم فوق اجسادهم وأجساد نسائهم وأطفالهم . إنهم يذبحون الشراكسة . أولئك الجبابرة الذين صنعوا أمجادهم بالذبح والقتل والتنكيل . يشاء الله بحكمته التى تفوق حكمة البشر أن يجرى ذبحهم على يد أولاد غرباء . وأهل قريتنا واجمون ادركوا ان وراء تلك الأسوار الشائكة غولا له انياب . وهم يتقدمون ومع كل خطوة تضطرب المشاعر والأفكار والخيالات . اكانوا مائة اكانوا عشرة . ولكنهم تقدموا لا يعرفون على وجه التحديد ما إذا كانوا يتقدمون لمهاجمة هذا الغول الجديد لانقاذ الشراكسة الطغاة الذين يكرهونهم ، أم يتقدمون لضرب الغول الجديد والدفاع عن انفسهم أم ماذا . لم يحسموا أبداً أمرهم . الذى حسم الموقف ذلك الوفد الذى خرج من بين الأسوار الشائكة ليلتقى بالرجال . تقدم الوفد من الرجال . واندفع واحد من الشبان الى شيخ معمم فهجم عليه منحنيا يقبل يده . ونظر الرجال الى بعضهم بعضا فى دهشة ما الذى جعل هذا الشاب الأجنبى يقبل يد مختار العجوز ، هل ظنه شيخا من رجال الدين .

وصاح الشاب :

ـ إننا نطلب السلام نريد مساعدتكم . لا نريد أن نحاربكم ولانريد ان تحاربوننا .. ليس بيننا وبين العرب اى خلاف . لقد تخلصنا من الشراكسة اعداءكم وأعداءنا .

الشاب الذى يتحدث لا يزيد على العشرين ، وبقية الشبان الخمسة من ورائه تتراوح اعمارهم بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة ، هؤلاء هم الذين اخذوا منى سارة هؤلاء هم الذين يقبلونها ، أو حتى يغتصبونها هؤلاء هم الذين كانوا مثار شفقة ، ثم مثار شماتة فى الشراكسة ، وهاهم مصدر الهلاك والدمار . ما الذى حولهم . أفسدهم . كيف تحولوا من حملان الى ذئاب .

عندما كان دواد يستعد للسفر سألته :

- اتتركنى وتترك فلسطين وهى تحترق .

قال ضاحكا :

- نحن اليهود لا نعرف الراحة .

صحت فيه :

- يخرب بيتك . وبيت اليهود ولولاكم لاسترحنا .

قال ساخرا :

- يا ذاكرى الرب لا تسكتوا ولا تدعوه يسكت لا تمنحوا انفسكم سكينة .. لا تتركوا للأمم فرصة للراحة .

صحت فيه :

- يخرب بيتكم ألف مرة . ليس هذا كلام الزب .

قال :

- بلى .. هذا هو ما قاله الرب .

صحت :

- انتم تتعبون الناس والأرض .

قال :

- حتى تصبح اورشليم لنا تسبيحة الأرض .

وضحك قائلا :

- لكن الذى يحقق هذا هو الرب . وليس هؤلاء الشبان الذين فى ضيعة روزنبرج إنهم أوغاد أفسدوا حياتنا .

قالها معتذرا . ربما قالها خائفا ربما قالها متشككا فيما يقوله . ربما كان يوازن بين صداقة قديمة أو علاقة قديمة جمعتنا وبين هذا الذى يلوح فى الأفق ، والذى اصبح الآن حاضرا أمد فيه يدى إلى داود .. فإذا بالنهاية تواجهنى بكل وطأتها .

كل النهايات تجمعت وفسدت . كما فسد الماء الطاهر فى تلك البركة بجثة جمل قتلوه والصقوا التهم بالشراكسة .. وتعمدنا أن نسكت ونحن

نعرف الحقيقة .

عندما ذهبت مع أبى لندعو شالوم وداود وأمه لحضور زواج سعاد .. كان فرحى شديدا عندما رأيت سارة .. كان أبى يوجه الدعوة مجاملة .. وهو لايتوقع حضورهم . وانتهزت الفرصة لأهمس فى اذن سارة إذا كانت تذهب لزيارة ديبوراه . إنها تعرف ما أعنيه . همست فى اذنى انها ذاهبة اليها غدا فى الصباح .. هذا الهمس أعاد الحياة إلى جسدى .. وانتظرتها . وماكدنا نختلى بين الأشجار حتى اتقدت النيران فى عواطفنا ، فى غرائزنا ، بعد فراق دام طويلا ، اعطتنى ما لاكنت احلم به . كانت هى عروسى . ومع ذلك كانت تبكى ، تأملت وجهها الباكى فى غباء . كانت دموعها تتساقط على خديها . بغزارة . وأنا عاجز عن الكلام . أهى تبكى من النشوة من السعادة أو من الخوف أو من الندم . كان أهم مايشغلنى أن أعرف كيف انتشت . فهكذا يتحدث الرجال عن النساء ، ويتضاحكون عندما يقول الواحد منهم إن المرأة انتشت حتى انها زغردت من فرط النشوة . فجأة سمعتها وهى تلتفت بعيدا .

ـ لن ترانى بعد الآن .

كنت راقدا مسترخيا على التراب بين الأشجار . لم أتحرك . ولم أفهم . بل زاد غبائى . وبقيت جامدا فقد خيل إلىّ أن ماحدث بيننا منذ لحظات يجعل كلماتها بلا معنى . إن مذاق جسدها مازال لاصقا بجسدى . ورائحتها فى أنفى وفى حلقى .. إنها لم تكن لحظة ما قريبة منى مثل هذه اللحظة . كيف تقول لى أنى لن أراها . كلامها دعابة . مناغشة . تعبير عن إحساسها بالخضوع . لقد ادركت حاجتها إلىّ ، وأنها لاتستطيع أن تحرم نفسها منى ، لذلك تتحدث عن الانفصال . تثير المخاوف التى تخشاها حتى تتأكد من انى لن اتخلى عنها ابدا . كنت واثقا من نفسى . فى لحظة من لحظات انتصارى . وها هى تميل برأسها على وجهى وتمسك به بكلتا يديها وبأصابعها مدسوسة فى شعرى .. وتقبلنى ، ودموعها تتساقط على جبينى ، ثم فجأة نهضت ، وجرت مبتعدة .

لم انهض ، لماذا انهض ، وهى ستعود ، كل ما فى الأمر انها لم تحتمل وهج اللحظة ، لم أتحرك ، لامعنى للحركة فكما ذهبت سوف تجىء ، ولابد انها تداعبنى ، تريد أن تلعب . أن تجرى بين الأشجار ولكن من يريد أن يجرى اذا كان مثلى يشعر بالاسترخاء يسرى فى أوصاله . لابأس انها سوف تعود . نعم . سوف تعود .

ولكنها اختفت ولم تعد . تركتني لاحلامي . أوهامي ، تخاريف شباب لم يفهم .

كان صوت أم داود أقرب إلى النواح ، وهي تندب حظها التعس الذي أصابها في ابنتها . كانت بائسة تماما لاختفاء سارة ، لتمردها ، لسوء أدبها ، ماذا تفعل من غير سارة . إنها سمينة لاتستطيع الحركة بسهولة لتقوم بأعمال البيت التي كانت تقوم بها سارة . لم تعد نفسها ولم تعد جسمها ولاطباعها لتصرفات مثل تلك التصرفات التي بدرت من هذه البنت العاق . كانت لاتعرف ولايخطر ببالها أن البنت التي ولدتها وخرجت من بطنها لاتريد أن تحب حياتها . لاتريد ان تتحول إلى كومة لحم فوق أريكة . وحولت السيدة فورتبينه سخطها على شالوم الذي كشف عن عجزه الفاضح . ولم تدرك العذاب الذي كان يعاني منه ، لم يقترب شالوم من قلبي يوما من الأيام مثلما فوجئت به وهو يتشنج في مقعده ويداه ترتجفان وقد اختنقت انفاسه ، وخشيت أن يموت وأسرعت أنا وداود نمسك بيديه المرتجفتين ، وتنبهت إلى أن أصابعه المتشنجة قوية إلى درجة غير عادية لاأتوقعها في رجل عجوز مثله . وكان يلهث باحثا عن هواء لايستطيع ان يظفر به ، ويهمس بصوت متحشرج انه يموت وانها قتلته .. ادركت في الحال انه يشعر بغيره مخيفة . كما لو كان قد فقد عشيقته . كما لو كانت حاله هي نفس حالي . ورثيت له ورثيت لنفسي .

وتلك الليلة التي استيقظنا فيها قبل الفجر . وصوت عويل وندب ونواح تحمله الريح إلينا من ضيعة روزنبرج . كان صراخ نسوة في جنازة . عويل أرملة من حولها نساء يندبن . ومضت الساعات ثقيلة وجاء الفجر ثم انبلج الصباح والعويل مستمر ولاأحد يأتينا بنبأ الفاجعة التي بعثت كل هذه الصرخات . لم أعلم ساعتها ان البنات كن ثائرات في الضيعة ، يتمردن على حياتهن الجديدة القاسية . يشعرن بحنين إلى بيت الأهل . وأحضان الأم والأب وربما الحبيب . شالوم هو الذي تلقى الأمر كمعجزة جاءته من السماء . اعادت له سارة ، فها هي تعود مثلما عادت بقية البنات إلى ديارهن وقد أعلن أن التجربة فاشلة . وأن المرأة للبيت وللحياة الوادعة . وانها تفضل الرفاهية والاعتماد على الرجل لا أن تمسك بالناس وتقلب الأرض وتحرثها وتدرسها وتتدرب على اطلاق الرصاص ، والهجوم بالخناجر .

رفض شالوم أن يخاطب سارة فى عناد الأطفال ، فلما ألحت عليه أن يعفو عنها بكى وعاودته نوبة التشنج ، لولا أن شخطت فيه زوجته فأفاق ، وهجمت بنات الجيران على البيت وبنات خالها يوسف الذى سمح لبناته أن يزرن البنت ليشهدن بأنفسهن هزيمتها وسخافة الموقف الذى وضعت نفسها فيه ، إذ كيف ترضى البنت الطيبة التى تنتمى إلى أسرة متدينة محافظة أن تحط من كرامتها وكرامة أسرتها بالعمل . كانت الزائرات يسألن سارة بدهشة . أكانت تستيقظ مبكرا . أحقا كانت هناك مسيرة سبت وحكت سارة كيف استطعن الخروج . لقد قررن البكاء جماعة طوال الليل والاستمرار فى النواح حتى يسمحوا لهن بالعودة إلى بيوتهن . بعض البنات جئن من بيروت والقاهرة ودمشق وحلب .. تحملن بشجاعة ملابس العمل السراويل والأحذية التى ترتفع حتى الركبة لتساعدهن على المشى فى الوحل . هذه الأساور والسلاسل الذهبية والخواتم والأقراط التى تتحلى بها البنات لاتصلح ، ارتفع صوت جابى وهى تشخشخ بأساورها فى يدها .

- هذا الصوت أحلى ما فى الوجود .

قال داود وهو يروى لى حكاية عودة سارة :

- قبل أن يجىء المساء .. هربت إلى حجرتها .. وظلت تبكى .

دخل شالوم عليها وبقى معها فترة طويلة ، قبل أن يخرج مهموما ، ونادى داود وقال له :

- اذهب مع شقيقتك إلى السينما .

ودس فى يده نقودا كثيرة ، وهو يردد :

- لاتعود بها حزينة .. ابحث عن أى شىء يسرى عنها ويضحكها .

وخرج معها داود فوجد الشوارع فى حالة غير عادية ، كان الباص العربى مضربا والعربجية ، وكانت المقاهى فى الشوارع اليهودية مكتظة بالطرابيش العربية ودوريات البوليس الانجليزى تطوف بالشوارع فاراد داود أن يعود بشقيقته . ولكنها أصرت على الذهاب إلى السينما . قالت له :

- لاأريد أن ارى وجوههم مرة ثانية .

وكان شارلى شابلن فى أضواء المدينة بسينما كوليزيوم . ولم تضحك سارة بكت للعمياء بائعة الزهور وعند خروجهما من السينما كان متظاهرون يتجمعون بالقرب من مبنى الحكومة ، ورجال الشرطة الراكبون والمشاة

يتزاحمون . وأراد داود أن يجذبها ويسرعا فى عودتهما ولكنها رفضت وصممت على الوقوف فى انتظار ان يحدث شىء .. هجوم من الشرطة على المتظاهرين ، أو هجوم من المتظاهرين على الشرطة . فلما ألح داود أن تعود معه قالت له واجمة :

ـ سوف أعود .. ولكن إلى المزرعة .

تركتنى وتركتهم ، انتزعت نفسها بقسوة أشد من الفئوس التى قطعت شجرة الزيتون وسعاد تبكي وتهاجم بشراسة عشرات الأيدى غير مكترثة بأيد عربية او أيد يهودية ، تريد أن تحمى شجرة الزيتون التى قضت حولها أسعد أيام حياتها . لكل شىء وقت ، ولكل شىء نهاية ، سواء كان فى قوة الشراكسة ، أو انوثة سارة ، أو رقة حنان شقيقتى سعاد . لكل شىء بداية ونهاية . واذا كانت النهايات تحاصرنى فالسبب فى تلك البدايات التى نشطت فى ضيعة الانصارى فافسدت حياتنا كما افسدت حياة عائلة شالوم .

١٠

الأنوار تخبو والسماء تصفو وهاهى الذكريات تقبل مسرعة ، تتداخل وتتشابك كسحب الشتاء فقد أقبلت اللحظة التى لاذكريات بعدها .. لم تبق سوى فرص محدودة لتتقدم ذكريات كانت تتمنى لو توارت فى عالم النسيان . هذه العيون الزرقاء . هذه الرءوس فوقها الشعر الأشقر قامات قصيرة ، وقامات عملاقة ، نوع غريب من البشر يهبط على ارضنا ، يختلف عن أشجار الزيتون ، والنخيل ، وأشجار البرتقال ، ها هم يختبئون وراء ذلك اليوم المطير عندما كان البرد يفرى العظام وداود قادم من ضيعة الأنصارى ، من مزرعة روزنبرج ، من مدرسة البنات ، من الكوبيتزم ، من القلعة ، ذهب يودعها قبل أن يسافر إلى باريس . الصدفة جمعتنا ماعدنا نلتقى إلا إذا حملت النقود من أبى إلى دكان أبيه لأسدد الفواتير . ستسافر بعد أيام ياداود ، وبعد سنوات سيموت أبوك ويوم أذهب مع أبى لنواسى خالك ، ستكون الثورة قد اندلعت فى البلاد . خرجت من بيتكم إلى المسجد الأقصى لنستمع إلى الحاج أمين الحسينى . فلسطين لأهلها مسلمين ونصارى ويهود بينما طلقات الرصاص تتدفق وتهدر خلف أسوار الكوبيتزم يتدربون على اطلاق الرصاص يتدربون على قتلنا .

جذبتنى فى صحن المسجد يد ذلك الشاب الذى سأعرف فيما بعد أن اسمه عبد القادر الحسينى ، وهو الذى سيدربنى على إطلاق النار ، وهو الذى مات بجوارى منذ ساعات فى القسطل . أخى عبد القادر . أبى . معلمى . سألنى الشاب الذى لم أعرف اسمه بعد عن قريتنا وعاد يسأل :

ـ أتعرف الكوبيتزم ؟

ـ نعم .

ـ هل دخلته ؟

ـ نعم .

ـ تعرف مداخله ؟

نظرت اليه وقلت بثقة :

ـ كما أعرف كف يدى .

وسمعت صوت أبى يصيح من بعيد .. « ماذا يؤخرك » لم أقل لأبى شيئا ، ولكنه أصر على أن يعرف ما الذى كان يهمس به ذلك الشاب . لاشيء يا أبى إنه يسألنى عن القرية . لماذا ؟ لاأدرى .. ولكن أبى يحذرنى . لاتتورط لاسبيل لأن نحافظ على حياتنا . حياة أمك واخواتك وعيالنا إلا بالابتعاد .. انفا لانستطيع أن نعيش معهم فى سلام .

عندما التقيت بعبد القادر وحدنا فى المسجد ، قال لى :

ـ أنت الذى يعرف المكان .

أومأت برأسى أن نعم أعرف المكان .

فانطلق يتحدث بسرعة .

ـ المهمة ليست سهلة . ولابد من الحذر ، ولاداعى للبطولة والشهامة ، فكل هذا يؤدى إلى عكس المطلوب منه ، كل مانريده منك أن تصل إلى هناك دون أن يلتفت أو ينتبه إليك أحد . لو وصلت ونسفت المكان وأنت معه فهذا شأنك أما إذا قتلوك قبل أن تصل إلى المكان ، فهذا يعرضنا جميعا لاخطار نحن فى غنى عنها .. لك ميزة انك تعرف المداخل تستطيع أن تبتكر حيلة أو وسيلة . ربما لاصلاح صهاريج تقول انهم يقومون الآن بالاصلاح بأنفسهم من يدرى ربما تأتى فرصة ، المكان مهم ، به مستودع ذخائر ، وصوب إلىّ عينين قويتين وهو يقول :

ـ فى ذلك المكان التقى وايزمن بكويلاند واتفقا على تقسيم فلسطين .

همست .

ـ كنت أظن انه مخصص كمدرسة للبنات .

ـ وقال وهو يتفحصنى . لعل صوتى تهدج وأنا أذكر لفظ البنات .

ـ هل لديك صلة بأحد فى الداخل .

همست

ـ ابنة رجل ساعاتى له أعمال مع أبى ، هو الذى اتفقنا معه على عملية الصهاريج .

قال بلا تردد :

ـ حذار من البنات . فتياتهن أشد قسوة من الرجال .

وضحك وهو يخبط كفه بكتفى .

ـ إلا إذا كان بينك وبينها علاقة . وغمز بعينه . فاتخذت وجها كاذبا منكرا لوجود علاقة .

كان يثق في قدراتي ، بعد أن قضيت فترة معه في التدريب على السلاح ، وجاء بجهاز صغير للتفجير وفتيل . وشرح لي أكثر من مرة كيف أقوم بالعملية .. وهو يردد « احتمالات موتك شبه مؤكدة .. فاجعل ثمنه النجاح في المهمة . لياقتك البدنية حسنة . تستطيع أن تجري ، ولديك خبرة بالتسلل والاختفاء وراء الأشجار واستخدام كل شيء أمامك في الطبيعة . وأنت تعرف كيف تتحرك في الليل » . استمعت إليه وأنا اتعجله . لاأكاد اتحمل سماع التفاصيل فخيالي يقفز عبر أسوار الضيعة ، وأرى نفسي داخل السرداب المؤدي إلى حجرة الشراكسة .. الأقدار هي التي هيأت لي دخول ذلك المكان وأنا صغير . وأن أتسلل إليه ، كانت العناية الالهية تدربني على هذا العمل الذي كان مخبوءا في الغيب . وترشدني إلى المكان الذي تحول إلى مستودع للذخيرة التي سيستخدمونها لابادتنا ، لابأس أن أنسف المكان بمن فيه ، وتموت سارة ، وأموت معها ، هذه هي النهاية الصحيحة للموقف الذي تورطنا فيه . أنا واثق اني ساخترق المكان . واثق اني سأواجهها ، سارة هي والقلعة شيء واحد . وأنا قادم إليك ياسارة . كنا نجلس القرفصاء في ركن بالمسجد والحديث بيننا همس يجلجل مدويا في اعماقنا . الكل ينظر إليّ بترحاب . الكل يشجعني . تعال نأكل . لا . لابد أن أعود فالشتاء غزير وأريد أن أصل قبل المساء . لاستعد لرحلتي في الليل ومعي جهاز التفجير كنت أعرف طريقي إلى بداية الطريق . وفجأة خطر لي أن أرجيء كل شيء لوضح النهار . فأبي يذهب إلى المعسكر الانجليزي حيث يعد لهم مكانا للسيفون الذي يقدم لهم العصير . سأنتهز الفرصة وأذهب إليه . انقل أخبارا . أي أخبار . أو اسأل المشورة . أية مشورة . المهم أن أصل إلى الربوة التي كنت أرقب منها أنا وداود الانجليز. وهناك اخفي جهاز التفجير والفتيل ، وارسم خطتي للوصول إلى الكوبيتزم من المؤخرة ، هابطا من الربوة . حيث لايتوقع أحد أن يأتي أحد من هذا الاتجاه .

مع الفجر كنت في طريقي إلى الربوة مارا بالبركة التي اعادوا تطهير مائها ، وحيث عاد السوق إلى نشاطه القديم ، عندما يتم نسف ضيعة الأنصاري بكل مافيها . سوف تتغير الأحوال ، ولكن لابد من اجتثاثهم كما اجتثوا شجرة الزيتون من الأرض . ها هو مكانها بقعة موحشة من الأرض . إنها ترفض ان تنبت زرعا ، اقسمت أن تضرب عن الانبات احتجاجا على اجتثاث الزيتونة ، البرد شديد لسعته حادة ، لو استطيع أن اتسلل إلى

الضيعة من هذا التل ، سيكون كل شيء على مايرام ، توقفت عند صخرة وحفرت تحتها واخفيت المفجر والفتيل . لو كنت أستطيع أن أمد الأسلاك من هنا إلى مستودع الذخيرة لوقفت هنا اشاهد الانفجارات ، لا أمل ، لابد ان انسف جسدى كما انسف جسدها .

لتمزق الانفجارات جسدينا وتطهر اشلاءنا من رجس وشهوة .. بينى وبينها ألف متر أو اكثر .. والفتيل والمفجر جاء بهما ضابط مصرى . من سيناء . شعرت بانقباض وقد توارى المفجر والفتيل فى جوف الأرض . كأنى عدت الى وحدة موحشة بعد اختفائهما عن ناظرى . تملكتنى رغبة محمومة أن أخفيهما أكثر وأكثر . أجمع الحصى . والعشب الندى والطين من حفر تجمع فيها الشتاء . اخفيها لأفجرها ، استرها لأعلنها مدوية . اشغل نفسى باخفائها ، فى انتظار الفرج ، فى الهام يأتينى للاقدام على الخطوة التالية . شعرت بالجوع ، بينما الريح تئن وتتوجع وتلسعنى ، وتنفذ إلى كل مكان فى جسدى ، وتنقلت بين صخرة مبتلة إلى عشب موحل ، الانتظار يفترسنى ، ولااريد أن اواصل السير فى الطريق الخالى نحو المعسكر تسمرت مكانى ، مستسلما للوحدة والرياح التى تعوى . وفجأة سمعت الصوت يزلزلنى :

ـ ماذا تفعل هنا ؟

كنت جالسا على صخرة ، فلما جاء الصوت من خلفى ، هبطت على الأرض بركبتى فى محاولة ان استدير بسرعة ، ولكنى قبل ان استدير كنت اعلم انه صوتها .

التفت اليها . ها هى أمامى فى يدها مدفع رشاش ، ترتدى السروال والحذاء الضخم وعلى رأسها قبعة . لم تفهم نظراتى ، كنت أراها شخصا مسحورا ، هبطت به يد ساحرة ، تريد ان تعبث بى ، او ربما تريد أن تساعدنى لاادرى .

قلت لها وكل لحظة تمر هى لحظة حياة أو موت :

ـ انتظارك .

لاادرى كيف صدقتنى . كان هذا هو التفسير الوحيد الذى قدمته ، فقبلته على الفور ، واطلقت ضحكة عالية عابثة .

ـ انت مازلت كما انت .. لاتتغير بينما كل شيء فى الدنيا يتغير .

همست كاذبا خائفا ، ولكنى فى نفس الوقت صادق واثق مما أقول :

ـ لاأستطيع أن أنساك .

هتفت ساخرة :

ـ مجنون .. تنتظرنى فى الشتاء .. هنا .. إنك قد تنتظر شهورا بلا جدوى . سوى أن تصاب بالتهاب رئوى وتموت .

همست :

ـ انتظر صدفة .. معجزة .

الآن أنا أكثر ثقة من نفسى . لقد اتصل الحوار ، وهاهى تلوح بالمدفع الرشاش فى يدها وتقول بقسوة :

ـ قد تنتظر أن أقتلك .

همست :

ـ هناك أكثر من طريقة لقتلى .

ضحكت :

ـ نعم .. ولكنى لو رأيتك فى أية مناسبة قادمة تحوم هنا ، فسوف أقتلك برصاص هذا المدفع قبل أن تقترب . إن مجرد الاقتراب من هنا كفيل بأن أرديك قتيلا . أتصدقنى ؟

ـ نعم .

ـ اتفهمنى ؟

ـ نعم .

رفعت رأسها إلى السماء . المطر توقف . وجلست على الأرض . وطرحت المدفع جانبا .. ونظرت إلىّ نظرة قوية ليس فيها أنوثة .. ولكنها كانت تدعونى إليها .

هجمت عليها ، فقالت هامسة :

ـ انتظر .

ثم أردفت ببرود شديد :

ـ انت تريدنى .

ومدت يدها إلى سروالها وهى تقول :

ـ إذا كان هذا هو ماتريده فهيا .

واطلقت ضحكة اشبه بصرخة متحشرجة قائلة :

ـ مرة أخرى للذكرى قبل أن ننتهى .

لم أقو أن أفعل شيئا . تجمدت ، ورأيت أمامى . جسدا كائنا مخيفا ، فقدت أى حيوية . أى رغبة . وهى تحدجنى بنظرات قاسية غريبة . ومدت يدها تبحث عنى ، فأدركت أنى فى حالة شلل وذهول . قالت بصوتها

المتحشرج :

ـ اذهب .. ولاتدعنى أراك مرة ثانية .

وصاح عبد القادر غاضبا :

ـ لقد كذبت عليّ .. كان الفشل محتوما . فأنت لم تذهب لتنسف مستودع ذخيرة .. ذهبت لتنسف غراما تشعر نحوه بالذنب . اختلف الهدف فكان لابد من الفشل .

وانهمرت الدموع من عينى .. فربت على كتفى . هامسا :

ـ نحن جميعا مازلنا نتعلم .. لقد سبقونا .. وعلموا حتى نساءهم .. فاصبر .

ولكنى لم أصبر طويلا .. فمن أين لى أن اعلم مايجب أن أعلمه . ولقد كان كل شيء مختلطا فى ذهنى . وماكنت أدرك كيف تتغير الاشياء فى حياتنا . حتى الاشجار والدور والطرقات والأصوات . وكأن بلادنا قد دخلها ثعبان ضخم يغير جلده . حتى دواد ذهب الى باريس ليغير جلده .. وكنت اسير فى طريقى إلى بيت شالوم أحمل له رسالة من أبى . انه سيتغيب بضعة ايام فى المعسكر . ويريد أن يشترى له شالوم صاجا وزنكا ومسامير واخشابا كان يستطيع ان يحصل عليها بأسعار ارخص . كما يستطيع ان يوفر وسائل نقلها إلى المعسكر بسهولة .

قال لى شالوم بلهجة عاطفية لم اعهدها فيه من قبل :

ـ انت تذكرنى بداود .

ارتبكت ، فلم أفهم ماذا يريد بالضبط ، وكان من العسير عليّ أن اتقبل كلماته دون أن اذكر سارة وهى تهددنى وقد ارتمت على الأرض جسد عاهرة ، ولكنى رأيت شيئا فى عينيه يوشك ان يتحول إلى دموع وهو يردد بالحاح حزين .

ـ اذهب إليّ الداخل وقل لفورتيينه أن تحضر معك فنجان القهوة .

شعرت وانا اشق طريقى إلى الداخل انه يريد منى ان ادخل عليها لتشعر بنفس الشعور الذى خالجه وكأنى أمثل لهما داود . وعجبت لترحيبى بالفكرة وشعرت بدفء كبير لم أشعر به من قبل فى هذا البيت الذى يرسل فى جسدى قشعريرة وانا اتذكر انه بيت سارة .

قالت لى الأم :

ـ أيشرب القهوة الآن . قل له كفاه ماشربه فى الصباح إنه يتلف معدته .. انسى انه تقدم فى السن ؟!

قلت لها :
ـ لااستطيع ان اقول له هذا .
فنظرت إلىّ طويلا . وخيل إلىّ انها غاضبة ، وقبل أن أتبين حقيقة شعورها ذكرت لى داود .
ـ لو كان داود هنا .. لقال له كل شىء .
قلت لها باسما :
ـ ولكنى لست داود .

أردت أن اقولها فى حنان .. ولكنها لم تفهم ، ظلت محتفظة بغضبها ، ونظرت إلىّ شذرا . وبدا لى أن شالوم ارسلنى اليها ليعاقبها بوجودى لأمر مابينهما . يريد ان يذكرها بداود لتتألم وتتوجع . أو تغضب كما هو حالها الآن . ما ألذ الألم عندها . إنها منفعلة تكتم انفعالها ، فلما استدرت محاولا الخروج صاحت بى :
ـ إلى أين أنت ذاهب ؟
كانت تمسك بى بلهفة واضحة فى صوتها وقالت بصوت قوى :
ـ انتظر سوف أصنع القهوة .
قررت فيما يبدو ان تضحى بصحة زوجها . ربما بحياته أو تضحى بالبن وتضحى بجهودها التى ستبذلها عندما ترفع جسدها الضخم من فوق الأريكة وتتحرك أو تتدحرج إلى المطبخ .
كان منظرها قد تحول إلى كرة ضخمة تتدحرج بالفعل أمامى ، لاأكاد اتبين ساقيها وهى تصيح بى غاضبة .

ـ لاتقف مكانك .. تعال هنا .
وذهبت وراءها إلى المطبخ واستمعت الى أوامرها . « نظف هذه الأكواب ، أرفع هذه الزبالة وأخرجها ، ضعها هناك فى هذا الدلو . الآن يجب ان تغسل يدك جيدا . إياك ان تسكب القهوة . سر فى حذر »

قبل ان اختفى كانت تقول لى :
ـ عد الينا .. فانت تذكرنى بداود .
اوشكت أن أهجم عليها واحتضنها وأبكى فى صدرها ، أوشكت أن أهمس لها فى لحظة جنون انى قابلت سارة ، واحكى لها عن متاعبى ، ولكن الطريق انتزعنى من هذه المشاعر ، فقد كانت المظاهرات فى كل مكان . والسير غير مأمون .. فى هذا الطريق منذ سنوات بعيدة عندما جئت الى

هنا لأول مرة أصابنى حجر فى رأسى . وغضب ابى لمجرد انى اصبت وصرخ فىّ ياغبى . الآن والمظاهرات محتدمة . أسير ولا أحد يهاجمنى ، فأهل هذا الحى ليسوا كالغرباء الذين احتلوا ضيعة الأنصارى لقد عاشوا هنا كما عشنا بأبائنا واجداد اجدادنا .. وهم يعرفون وجهى . ومع ذلك هناك أسوار شائكة غير مرئية توشك ان تظهر فى عيون الناس ، فى حركات اجسادهم . فى اشارات ايديهم .

وسمعت صوت يوسف رودريجز :

ـ تعال هنا .

لما اقتربت قال بانفعال :

ـ هل نسيت انك مسلم . ألم انصحك بالابتعاد أكثر من مرة .

لاتحملنا مسئوليات أكثر مما نتحمّل .. أرجوك ياابنى .. نعم قالها . ياابنى .. لاتعد إلى هنا .

سألته متجاهلا مايقوله وقد تملكتنى عاطفة جياشة غريبة :

ـ مااخبار داود .

قال بانفعال :

ـ زفت وقطران . أخبار سوداء .

كل شىء يجف داخلى .. وأنا أرقب الأسوار الشائكة فى عينيه . وفى لهجته ، وكان يصيح :

ـ منذ ساعة أطلق مسلم الرصاص علينا عند سينما كوزموس .

فى دارنا كان الرجال يتندرون عن اليهود الذين فروا كالأرانب مذعورين ، وأبى يهز رأسه ويبتسم قائلا :

ـ لولا الانجليز لأكلناهم .

هل يأكل شالوم والسيدة فورتيينه ، ابدا .. إنه مثل الاخرين يكرهون اصحاب العيون الزرق والشعر الأشقر ، اولئك القصار والعمالقة الذين يمسكون السلاح ويقفون مكان الشراكسة امام وخلف اسوار شائكة ، وقال لى ابى قبل ان نذهب الى مضاجعنا لننام :

ـ يوسف خائف .. وهو لايريد مشاكل .. وقد حدثنى عنك .. وهو يخشى بصراحة من مجيئك إلى القدس حتى لاتختلط بالشبان الذين يتجمعون فى الجوامع ويستمعون إلى الحسينى ويعدون لمجزرة تحدث لليهود . كل شىء ينبىء عن قربْ وقوع هذه المجزرة التى يتحدث عنها الرجال بحماس حديثا فيه نشوة وهم يحتسون القهوة ويدخنون النرجيلة .

١١

دواد محظوظ رصاص هتلر لم يقتله ولكن رصاص أقرانه قتلني ، وها هو عقلي يغادر جسدي ويتابع عبر الزمان والمكان ذلك الذى جرى لداود .

عندما ذهبنا لنعزى فى وفاة ابيه ، قابلنا خاله يوسف رودريجز مزق قميصه حزنا ، أصحيح يا أبى أنهم يمزقون قمصانهم حزنا وعقابا لأنفسهم على سماحهم بتخريب المعبد الثانى . نعم هذا هو مايقولونه . ومتى تنتهى الاحزان . عندما يقيم رب العالمين المعبد الثالث . هؤلاء الغرباء اخذوا على عاتقهم القيام بمهمة الرب . يريدون إقامة المعبد بسواعد البشر . هنا مكان المسجد الأقصى .. يا إلهى أى جنون هذا ، ذهب داود إلى باريس ليتعلم مثل أولاد الأغنياء . ليتكلم مثل الحكام . ليعيش حياة الترف والثراء . يحقق احلاما تؤرق خاله يوسف عن عالم سعيد لأنه يتكلم الفرنسية . ولكن هتلر اقتحم باريس واخضعها وطاف الجستابو يخرجون اليهود من مخابئهم وقبضوا على داود فى ذلك الزقاق المتفرع من رى لاهيشيت فى الحى اللاتينى . كان لابد أن يهلك ، حمله القطار إلى معسكر العمل . جحيم لم يخرج منه إلا قلائل أحياء . كان معسكر أشباح كانوا يوما ما رجالا ونساء فتحولوا إلى نفاية بشرية ، كل يوم يمر عليهم معجزة . كل لحظة يولدون من جديد .

عندما علم شالوم ان هتلر دخل باريس بكى . وجاءه يوسف بالانباء التى كان يتوقعها . قبضوا عليه وارسلوه الى المعتقل . مات شالوم مقهورا واصاب فورتينيه ذهول .. واحتجبت بعد موت زوجها . اما يوسف فسوف تدفعه مشاعر غضب وحقد لينتظر المعجزة على يد هؤلاء الغرباء القادمين من بولنده وروسيا . الخائفون المذعورون فى أوربا يستأسدون فى اورشليم . كان نواح فورتينيه يلهب الدم فى عينيه . ويرتفع صوته المعدنى معلنا انه لم يبق إلا نحماى حيروت إزراييل ، كانوا يصلون فى المعبد الصغير بالمقابر التى يدخل فيها جسد شالوم .. وصاح بعد الصلاة ..

ـ اين أنت ياإبراهام شتيرن .

فتحولت إليه أنظار واجمة محذرة وتقدم منه من يهمس :

ـ لو أردت أن تصرخ فعندك الأرغون وضع شارتها المميزة .. أما شتيرن فلا وجود لها إلا هنا .

وأشار إلى صدره ، حيث تختبىء شتيرن فى أعماق الصدر .

صاح يوسف :

ـ ابو داود مات وهو لايعرف أين داود .

همس الرجل وهو يضغط بأصابع متشنجة على ساعد يوسف :

ـ داود سوف يعود .

ألح يوسف :

ـ أتعرف مكانه .

عاد الرجل يهمس :

ـ قلت لك سوف يعود .. وكفى .

كان داود يرقد فى حظيرة قذرة .. بجوار عازف كمان .. ولاعب شطرنج محترف وطبيب بيطرى .

كيف جمعوه بكل هؤلاء . جاءوا بهم من كل أحياء باريس . يتكلمون كل اللغات . لاعب الشطرنج يتكلم الروسية . يصنع قطع الشطرنج من لباب فتات خبز ، بيلي ابيض ، تشيرنى أسود . عازف الكمان يتكلم الألمانية . فايس أبيض . شفارتز أسود . الطبيب البيطرى يتكلم الايطالية . كانوا جميعا يرتعدون ، ليفينفيش يشرح بالروسية ولا أحد يفهم ماذا يقول . ولكن تبقى بعض المعانى لايخطئها الفهم . شجاعة اليأس ، لافائدة من الخوف . لابد من مواجهة الموت . عازف الكمان . يقول عن الموت « تود » وهو قادم لامحالة وطالما لايوجد كمان يعزف عليه فلا بأس أن يأتى الموت على عجل . ليفينفيش يقول انه لابأس من محاولة تخطى الأسوار الشائكة . لابد من اجتياز حقول الالغام ، لابد من عبور الغابة فيتوريو يردد دوبو .. دومانى .. بعد غد . بعد غد .. بعد أى غد .. كل الأيام القادمة غد . وجاء دوف البولندى العجوز ، كانت السماء ملبدة بالسحب ، وهمس :

ـ منذ هذه الليلة سوف تنتظرنا سيارة عند نهاية الغابة .

وسأله داود .

ـ هل أنت واثق انها تنتظر ؟

قال الرجل بسرعة وعيناه تبحلقان فى المجهول :

ـ نعم

ـ كل ليلة ؟
ـ نعم كل ليلة .
وعاد دواد يسأله وهو غير مصدق :
ـ وفى السيارة سائق يعرف إلى أين نذهب .
يبتسم دوف وهو يحدق فى المجهول الذى يكاد يرى تفاصيله ويهمس :
ـ أنا واثق من كل شىء .
فيسأله داود وشكوكه تزداد كلما زادت علامات الثقة عند دوف ، انها ليست ثقة . فقد تكون جنونا محضا .
ـ من الذى اخبرك ؟
يهمس دوف بما يؤكد انه مجنون :
ـ لست فى حاجة إلى أن يخبرنى أحد .
إذن هو الجنون :
ـ لم يقل لك أحد .. ومع ذلك تثق فى وجود سيارة وسائق فى نهاية الغابة . ومنذ هذه الليلة ؟
ـ نعم .. إنهم يعملون من أجل إنقاذنا .. هذا لاشك فيه .
يسخر داود :
ـ لاشك فيه .. دون ان يخبرك أحد .
قال دوف :
ـ الراهب الكاثوليكى قال لى وهو يصعد بجوارى إلى القطار .. ستجد كثيرين ينتظرون اللحظة المواتية لاخراجكم من الأسر .
سكت داود . لافائدة من مناقشة رجل يحلم .. ولكنه قد يستطيع أن يحلم معه . لابأس سوف يجاريه .
ـ وبعد أن نخرج إلى أين نذهب .
قال الرجل فى هدوء :
ـ نلتقى فى أورشليم .
ـ إلى أين ؟
يقول دوف فى إصرار :
ـ إلى أرض إسرائيل .
صاح داود فيه ذات ليلة :
ـ كلامك تخريف فى تخريف .

فنظر اليه دوف غاضبا .. واعترض ليفينفيش وخرج من تأملاته فى الموقف على رقعة الشطرنج وقال :

- إنه تخريف ولكنه حقيقى .

واردف بصوت فيه زجر :

- لم يبق لنا الا التخريف . ولو صدقناه فسننجو .

قال داود مستسلما :

- ربما .

ولكنه فى قرارة نفسه ، كان يعلم انهم فقدوا عقولهم .

وقال ليفينفيش قبل أن يغرق فى تأملاته الشطرنجية مرة أخرى :

- لم يبق إلا الخيال .. الواقع كما ترى كئيب .

ثم رفع صوته وقال بلهجة حادة :

- لو تمسكنا بالتخريف .. بالطيش . بالحماقة .. بالتهور .. فسوف تنفتح لنا طاقة النجاة .

كان العذاب الذى يحاصرهم هو الواقع . وكان دواد محاصرا بحراس يعذبونه ورفاق معتقل يعذبونه ، وكان عليه ان يقبل الاندماج فى حلم الهرب الذى لايصدقه ، عليه ان يستسلم للجنون حتى لايجىء وكان يدرك فى اعماقه انه مندفع الى انتحار ويرى أمه تبكى ، وقد يستيقظ مذعورا من نومه وقد سمعها تصرخ فيه ان ينجو بنفسه . أو يرى أباه وقد تقلص وجهه من الألم وتشنجت يداه . واحيانا يطبق بهما على رقبته .. يهزه ليجرى قبل أن يقف فى طابور الاعدام وينطلق الرصاص مخترقا جسده .

وكان يرى أحيانا الموت مقبلا عليه وحشا أسود له أنياب وعيون بارزة تائهة ، أو يراه خارجا من مياه آسنة فى بحر بلا سماء ولاشاطىء ولاشمس ، ويهاجمه الوحش يريد أن يفترسه . فيصرخ مستعطفا .. أنا عربى .. انا فلسطينى .. لاشأن لى بهذه الحرب لا صلة لى بهذه البلاد .. وهنا يحدث أمر عجيب ، إذ يبدو وكأن الوحش يتلكأ أو يتثاقل . ويخيل إليه انه يسمع سؤالا .. هل أنت حقا من فلسطين . فيرد مبتهلا : نعم انا فلسطينى انا اتكلم العربية ولااعرف الألمانية ويهز الوحش رأسه وكأنه استمع إلى تعويذة من السحر . ويظل داود يردد فلسطينى . فلسطينى والوحش يتراجع حتى يوشك أن يختفى فى الماء الآسن الذى خرج منه ، لولا قوة قاهرة تندفع من أعماقه تصرخ .. انا يهودى .. يهودى ..

يهودى .. فإذا بالوحش يخرج مندفعا نحوه يريد القضاء عليه . ويفتح داود عينيه ليدرك مذعورا انه خرج من الكابوس الليلى ويتلفت حوله فتنتابه رجفة . إن ما كان ينقذه فى أحلامه يقتله فى يقظته لايستطيع أن يهمس بين الراقدين حوله أنا عربى فلسطينى ، لأنه لايستطيع أن ينكر انه يهودى لايستطيع أن يقبل ذلا أكبر مما هو فيه . فينكر ذاته .

يستيقظ وجسده يرتجف وعرق بارد يتصبب من جسمه ، ويزعم لنفسه ان الصقيع يشتد ، وانه يرتجف من لسعته وليس من لسعة الذعر .. كان لايرى طريقا للحفاظ على نفسه . والأيام تمر وهم يواصلون كل يوم حفر خندق عند حافة الغابة ، ربما ترعة سوف تجرى فيها المياه .. ولكنه لم ينتظر طويلا قبل ان يكتشف ان الخندق الذى حفروه بسواعدهم سوف يتحول الى مقبرة تتكوم فيها أجسادهم التى مزقها الرصاص ، وتحولت العظام إلى شظايا مختلطة باللحم والدم . سوف تحرقها نيران فتتصاعد منها رائحة الشواء وأبخرة تنتشر فى الهواء وتزكم الأنف . ويتساقط شحم ودهن على الوجوه والملابس ، فاذا بالاحياء وقد تلوثوا بابخرة الأموات ، وتأتى السيارات الضخمة . تحمل الرماد المتخلف من الحريق ، بعد أن يجرفونه بسواعدهم ، الجاروف يرتفع فى يد داود ويهبط يشق الرماد .. يشق الأجساد يشق الخامات البشرية المحترقة .

كانوا يجرفون رماد ليفينفيش عندما همس ديف :

ـ هذا الخندق هو بداية سرداب تحت الأرض ، يمتد آلاف الاميال ، يشق صحارى وجبالا ، وبحارا ، حتى يصل إلى أورشليم .

همس داود :

ـ أهكذا سوف يذهب ليفينفيش . ولكن هاهو رماده تحمله السيارات .

قال دوف :

ـ سوف يتجمع من جديد .. عندما يأتى الميعاد .. كل مافى الأمر أنه سيأخذ بعض الوقت ..

قاطعه ساخرا ..

ـ يعود كالفراعنة فى مصر .

قال دوف غاضبا :

ـ ماهذا .. ألا تصدقنى ؟

صاح داود متحديا :

ـ انت لاتعرف فلسطين ولاتعرف بلادنا .

فهجم عليه دوف وامسك برقبته .. وضغط عليها يخنقه .. خرج صوت داود متحشرجا .

ـ يامجنون .

برقت عينا دوف وهو يقول :

ـ كفى حديثا عن بلادك .. إنها ليست تلك التى كنت فيها .. إنها ليست دارك .. ليست أمك وأباك .. إنها أرض أخرى غير تلك التى اختطفها منا العرب والأتراك والانجليز . الأرض التى كنت فيها أرض عاهرة مبتذلة .. أما الأرض التى سنذهب اليها فهى ارض لها شرفها .

خاف داود ، اذا كان هناك مزيد من الخوف.. إنه لايستطيع أن يواجه مجنونا .. يجرف معه رماد جثث زملاء كانوا معهم .. ويحلم بالخلاص .. إن دوف سوف يفترسه دون أدنى تردد دفاعا عن أحلامه ، دفاعا عن تخريفاته .

وجاءت تلك الليلة التى ايقظه فيها دوف .. وهمس :

ـ هيا ..

ايقن ان النهاية قد جاءت . وهل يشك فى أن محاولة الهرب تعنى الانتحار ، زحفا حتى الخندق ، وارتميا فيه بين الجثث واستمرا يزحفان ، لايستطيع ان يتراجع ، عليه ان يمضى خاضعا لجنون المجنون . ووصلا إلى ذلك الموضع الذى توقف عنده دوف . وهمس :

ـ هنا سنخرج ونجرى قبل أن تلحق بنا الأضواء الكاشفة .. لابد ان يقطعا اكثر من مائة متر ، مجازفين ، بالاصطدام بالغام تفجرهما ، مجازفين بأضواء كاشفة تكتسح المكان فى دورات متتابعة ، مجازفين بالاصطدام بأسلاك انذار . مجازفين بالارتطام بأسلاك شائكة تمزق جسديهما . ماكاد دوف يقفز خارج الخندق حتى دوى جرس انذار ، وانطلقت صفارات تعوى وكشافات تكتسح الأرض بأضواء باهرة . وقفز دوف عائدا ، وأسرعا من حيث جاءا بينما اندفع عشرات من المعتقلين وقد تملكتهم حمى الصياح ، وهاجوا فى الفناء ورصاص يحصدهم وصرخات جرحى تعلو ، بينما اندفعوا نحو الخندق ، الرصاص ينهمر يحصد العشرات .. والدماء تسيل لزجة ساخنة على الأرض ، وتختلط بالعشب وتمتزج بالتراب والحصى لتصنع وحل الدم .

ما الذى جاء بك ياداود إلى هذه البلاد أين أنت ياخالى يوسف وانت

تعلمنى فرنسيتك تلاتين ماتان ما اكلت البان .. قلت لك أترسلنىَ إلى باريس لاتعلم الشحاذة : قلت لى لتتعلم لغة الحكام .. اين أنا الآن من الشحاذة والحكام . ألقيت بى بين براثن وحش يريد أن يلتهمنى واذا اردت ان انجو فلا طريق أمامى الا هؤلاء المجانين العقلاء ، نوع اخر من البشر غير الذى عرفناه فى الدكتور روزنبرج وديبوراه . مصنوع فى أفران المانية خاصة .. بالأمس جلس دوف على الأرض بجوارى وتعمد أن يلصق كتفه بكتفى وجعل ينظر إلىّ نظرات غامضة غير مفهومة لم استرح لها وفجأة قال لى :

ـ اسمع أريد ان أحدثك فى أمر خطير .

نظرت إليه وقلبى يتوثب فى صدرى :

قال وهو يضغط بكتفه على كتفى :

ـ هل تفهم معنى خطير ؟

قلت :

ـ نعم .

قال فى حدة :

ـ لا .. أنت لاتفهم شيئا .

قلت :

ـ الكلمة مفهومة .

فسألنى وعيناه مصوبتان بوقاحة فى عينى :

ـ مامعنى خطير ؟

قلت :

ـ مهم .

قال :

ـ لا ..

قلت :

ـ ضرورى .

قال :

ـ لا ..

قبل ان انبس بكلمة أخرى ، قال من بين اسنانه :

- خطير .. تعنى حياة أو موتا .

همست :

- ماذا تريد منى ؟

قال بهدوء قاتل :

- إما أن تكون أخى .. أو ..

وسكت برهة وقال ببطء :

- أقتلك .

همست :

- النازى يريد قتلنا . .

قال :

- اما أن تكون أخى أو اقتلك .. هذا هو العلاج الوحيد لامثالك القادمين من الشرق .

لم أجرؤ أن أقول له : انت لست أخى .. وأمى لن تقبل مثلك فى بيتنا فهى تخاف منظرك .. وتفزع من كلامك . وهى سيدة طيبة تحبنى وأنا فى أشد الحاجة اليها وأحاول أن أتذكرها الآن لاخفف ما أعانيه من حديثك معى . أما أبى فيزعجه ان يرانى اختلط بك ، وانت لاتتكلم الفرنسية حتى يعجب بك خالى يوسف . واذا كنت أنا من الشرق فأنا أكثر حضارة منك لانك همجى لاتتعامل إلا بالعنف . لم أقل له شيئا مما دار فى رأسى لأن مثل هذه الكلمات اصبحت بلا معنى ، ونحن نواجه الموت وننجو بالتخريف ونحتفظ بعقولنا بالجنون ولاخلاص يبدو امامنا سوى أن أكون أخا له ويكون أخا لى ابتسمت ولكن ابتسامتى لم تعجبه فقد سألنى بلهجة غاضبة :

- لماذا أنت حزين ؟

قلت :

- وهل هناك مايدعو إلى السرور !

فرفع صوته فى عصبية :

- اقول لك انت أخى ولاتفرح .. إن الطريق أمامنا مفتوح ويجب ان تفرح وتستمع إلى أوامرى .. نعم اوامرى .. وضرب بإصبعه فى خصرى يكاد يثقبه وقال وسخرية مريرة تنبعث من عينيه :

- حتى لو اخترقنا جسدك .. وأكلنا لحمك وعظامك .. فلن يقف شىء فى طريقنا .. وأنت ميت حتى تحارب معنا .. أنت تحارب فأنت موجود . وإذا لم تحارب فسوف اقتلك بيدى سوف اتدرب على القتل فى جسدك لاننا

سوف . نرهب ونخرب وندمر وسوف نقتل ونسرق وسوف تكون الكلمة لنا في فلسطين . البنادق فى ايدينا تمزق أجساد العرب والانجليز واليهود امثالك الذين لاينضمون إلى صفوفنا .

وردد بصوت كله انفعال وغضب :

- نعم الأمر هكذا وهو أمر خطير .. لانه حياة أو موت..

ووخز داود بإصبعه فى جسده كأنه يطعنه بسكين .

في الصباح كان لابد من ترتيب المعسكر وتنظيمه ، وابتدأ القائد بتنظيم القتل ، جمعوا الأحياء فى صفوف . هؤلاء الأشقياء سوف يلقون الموت الذى يبحثون عنه واحدا بعد الاخر ، وجلس ضابط امامه منضدة عليها سجل .. لابد من حصر الأرقام وتدوين عدد الجثث وطرحها من الباقين على قيد الحياة . دفتر منه وفيه . ايرادات ومصروفات . اما القائد فيتصدر مائدة مستطيلة عن يمينه وعن شماله مساعداه ، ويتقدم الواقفون فى الصف . واحدا بعد واحد .

ماأسمك ؟ ليفى . إيليا .. دان . سيمون .. جنسيتك .. بولندى ، روسى ، اسبانى ، تركى ، عمرك عشرون ، ثلاثون ، أربعون ، تقدم خطوتين ، قف وينطلق الرصاص من المدافع الرشاشة يمسك بها فريق من الجنود .

ما اسمك .. إيزاك . جنسيتك ، هولندى .. عمرك .. ثمانية وعشرون . تقدم خطوتين . قف ورخات رصاص والجسد يسقط دفعة واحدة ، والدم يسيل يضيف المزيد لبركة الدم .

جاء دورك يادواد . تقدم انت .. ماأسمك ، دواد . جنسيتك . فلسطينى عربى . جاءته الكلمات وهو يلهث ، ليس بولنديا ولاهولنديا ، ولاروسيا .. اتفهمون .. لافائدة .. ولكن قبل أن يسمع ماعمرك .. تقدم قائد فرقة الجنود الممسكين بالمدافع الرشاشة .. قائد فرقة الاعدام, والتفت الضابط إليه ، وداود لايكاد يفهم .. يرى ويسمع ولايرى مايراه ولايسمع مايسمعه . الضابط يقول :

- المدافع ساخنة .. تحرق ايدى الجنود .

كان القائد الذى يجلس إلى المائدة ، يشعر بالملل . وكان لايرتاح للدم يلوث اقدام الضابط الذى يتقدم منه . الأحذية لابد أن تكون نظيفة وحمل الجثث التى تسقط أرهق الرجال ، والرشاشات مرهقة .. القى بنظرة على

داود كأنه يشفق من تركه هكذا بلا قتل . وعاد يسأله :
ـ ماذا كنت تقول .. من أنت ؟
تشبث داود بتلك الكلمات الأخيرة كأنها تحمل سرا . فيها سحر . قال متوسلا :
ـ عربى .. من فلسطين .
تمتم الضابط فى دهشة :
ـ عربى ..
وكان قد وصل إلى قرار ، فصاح :
ـ عودوا بهم إلى عنابرهم .
ونجا داود من الموت .
سقط دوف ، كما سقط إبراهام ، كما سقط دايان ، وانتظر داود ، حتى دخل عليهم الجنود ، الأمريكيون .

لن تعود إلى أورشليم وحدك .. لاأحد يعترف به كفلسطينى ، أو عربى ، عليك أن تعتصم بالقلعة كما فعل باركخبا .. أنت ميت حتى تحارب ، أنت تحارب فأنت موجود .. هؤلاء الخارجون من معتقلات النازى يصلحون للعمل السرى . سوف نرهب بهم الجميع . انتم مكلفون بالتخريب والتدمير . سوف تقتلون وتسرقون .. سوف تذكرون ايامكم فى المعتقل . لم نعد نرضى بضيعة أو بيارة . جابوتنسكى رفض « هايمشتات » من الآن عليكم القتال لدولة اسرائيل ، دير جود نشتات ، العرب ينوون العنف .. علينا أن نرهبهم . كيف؟ يلقى بالبندقية على خريطة فلسطين ويهتف :
ـ الأمر كذلك .

هذا الذى أراه كما عاشه داود يتكشف لى كرسالة متأخرة تأتى عبر الزمان . وأنا أقترب من هذا الجزء من الألف من الثانية الذى تبقى لى من الحياة .. ياإلهى كم تأخرت هذه الرسالة .. بينما كان عبد القادر يحكى لى حدوتة سعود الخضرة الذى حارب الانجليز لأنهم سلموا اليهود السلاح والذخيرة فوشى به المسعود فانتقم له شقيقه وقتل الواشى فانتقم أهل الواشى بقتل شقيق سعود .. واستمر القتال بين أهل الواشى المسعود وأهل سعود ونسوا جميعا اليهود والانجليز . رسالة تأخرت فى الطريق .

١٢

ها أنذا ألهث صاعدا الربوة فى طريقى الى حيث خبأت المفجر والفتيل . قال لى عبدالقادر الحسينى نحن فى حاجة الى كل شىء وأى شىء لنحارب به ، نحن فى حاجة الى فشنك .

الطريق بين المعسكر والكوبيتزمتجتاحه السيارات الضخمة تحمل السلاح والذخيرة من مستودعات المعسكر الى اليهود .

الهمس فى قريتنا يسرى كالنار مختبئة تحت الرماد . جاء الى المعسكر الانجليزى ماجور "اورد وينجت" منع أبى من أكثر أعماله فكان يتردد على المعسكر لأعمال سباكة بسيطة ، لا يدخل العرب المسلمون المعسكر ، لأنه يدرب اليهود الفتيان والفتيات . عرفنا انه يكون منهم ما يسميه فرق الليل الخاصة . كان العمل فى الليل لنا ، فأراد وينجت أن يقودهم ضدنا فى الليل والنهار . أهو يهودى . لا ، أنه سكوتلندى مسيحى . لماذا يتعصب ضدنا . أنهم يكرهون العرب . يكرهون المسلمين . لا يثقون فى أحد منا . رأيت اليهوديات يتجولن خلف أسوار المغسكر ، يتحركن حول عربات اخرى تحمل مزيدا من الأسلحة . اختبأت خلف الصبار ، لا أريد أن يرانى أحد وأنا اخرج المفجر . هاهى سيارات أخرى تجلس الفتيات فوق صناديق الذخيرة . سيارة بعد سيارة . ذخائر تكفى لنسف القدس بمن فيها . هاهى تمر تباعا وأنا عاجز عن التصرف ، السيارات تمضى كوحوش كاسرة ، تهدر نحوى ، تمضى لتهدر فوق بيوتنا واجسادنا . ومع ذلك مازال كل شىء هادئا حتى هذه اللحظة .

قبل أن انتبه رأيته على بعد خطوات منى ، ليس انجليزيا ، يرتدى ملابس عسكرية لم ارها من قبل ، يتقدم نحوى ، عيناه مصوبتان نحوى ، يمشى وحده :

- من أنت .

لم اتمالك نفسى . يتكلم العربية ، لهجته غير لهجتنا .

قلت بصوت لا أكاد اسيطر عليه :

ـ أنا من هنا .

عيناه تبتسمان :

ـ من أهل هذه القرية .

اجبت :

ـ نعم .

أقبل عليّ مادا يده يريد أن يصافحنى . سمعته وكفى فى كفه :

ـ انا ضابط مصرى .

صحت به :

ـ انت مصرى .

قبضت بيدى على ذراعه ، هززته بقوة ، صرخت :

ـ نريد فشنك .

عاد ينظر الى . صحت :

ـ أنا عربى .. اريد ان انقذ بلادى من هذا الوباء ..

اشرت فى اتجاه المعسكر : وانا اتبين انه كان قادما منه . كيف نسيت انه خارج الآن من المعسكر . سكت ، فقدت قدرتى على الكلام ، وعيناى تنظران اليه ثم تعاودان النظر فى اتجاه المعسكر .

رمقنى بنظرة فاحصة وسألنى :

ـ ما اسمك ؟

ـ أحمد .

قبل ان يسأل سؤالا آخر ، سألته بعصبية :

ـ هل تعطينى الفشنك .. ام لا ؟

تلفت حوله . وهو يتلفت شعرت أنه مثلى ، لا يستريح لمن حوله من

البشر . قال :

ـ جئت الى هنا لاتدرب مع الانجليز .. ولكنك تستطيع أن تساعدنى .

قلت فى عجب :

ـ أساعدك .

قال :

ـ قابلنى باكر فى الاقصى .. قبل صلاة العشاء .

قلت للرجال فى المساء :

ـ قابلت ضابطا مصريا فى المعسكر .

سألنى عبد القادر :

ـ اواثق أنه مصرى ؟

قلت :

ـ هو يقول ذلك .

قال آخر :

ـ اعلم انهم يجيئون للتدريب .

وكثرت الاسئلة . الا يخرجون من المعسكرات .. احيانا يركبون سيارة ويذهبون الى القدس . اين فى القدس . سوف نعرف غدا عندما يصل المصرى .

سألت أبى :

ـ هل يأتى ضباط مصريون الى المعسكر ؟

أجاب :

ـ أحيانا . لماذا تسأل .

أجبت باقتضاب :

ـ أريد أن أعرف .

قال أبى :

ـ لا تخاطبهم .

ـ لماذا ؟

ـ قال فى ضجر :

ـ لم أعد اطمئن لاحد . وينجت فى المعسكر حوله الى معسكر لليهود . اذا رضى بالمصرى ، فلأنه واثق انه معه .

رفضت ان اروى لابى لقائى بالمصرى ، وانتظارنا له غدا فى المساء .

تركنى المصرى بسرعة . لاحقته بسؤالى :

ـ ما اسمك ؟

هز كتفه ورفض ان يجيب وقال بسرعة :

ـ لا تتعجل الأمور .. غدا مساء كما اتفقنا .

عندما اصبحت وحدى ، شعرت انى فوق الربوة ليرانى كل الناس فى فلسطين . انظار الجميع من أراهم ومن لا أراهم مركزة نحوى . الكل يعرف انى هنا . ويعرف انى سأمد يدى تحت هذه الصخرة لاخرج ما خبأته والكل يتربص بى ، ولكنى سأمضى فيما جئت من أجله ، رغم تحذيرات عبد القادر الا أثير انتباه أحدا . ما كدت اخفى ما اخرجته من التراب فى صدرى ، حتى رأيت تلك الناقلة الوحش تهجم مسرعة وتقف على مبعدة والسائق الانجليزى ينظر الى من نافذته عند عجلة القيادة . وثلاث فتيات يجلسن فوق سطح العربة ينظرن الى ولدهشتى يلوحن لى باسمات او ساخرات .

كان لابد ان اقترب من السائق مطيعا اشارته .

ـ ماذا تفعل هنا ؟

كذبت بسهولة ، بسرعة :

ـ ابى فى المعسكر . جئت اخبره امى مريضة .

فحصنى ببطء . عيناه زرقاوان زجاجيتان ، وجهه لامع ، شعره بنى وشاربه بنى .

- لا تقف هنا .. عد الى قريتك ..

لو كانت إحدى الفتيات سارة لما نجوت . كانت ستعرف انى قلق ، وانى مضطرب ، وانى اكذب ، وان صدرى اضخم من حجمه الطبيعى الذى تعرفه . كانت ستستريب ، وكانت ستصر على اعتقالى وتفتيشى ، وكانت ستقتلنى .

تحركت ، والسيارة تبتعد والمفجر فى صدرى يمنعنى من الجرى كما يجب أن اجرى فى هذا السباق مع الخطر ، لم يعد سـ[illegible]
الى شجرة زيتون . سباقا لا ينتهـ[illegible]
ظهورنا ونلتقط الانفاس

هذه هى أيام الـ[illegible] ـربص ، يظهر فجأة وفى اى وقت مـ[illegible] ـرى الذين يعدون للقتل والدمار يتحركون من حولك ، نشيطين ، فى دأب لا ينقطع .

بعد صلاة العشاء عبرنا الساحة الى حارة ابن الثور ،وصعدنا الى مسكن أبو الفضل فوق البغال عند أول الحارة . كان يجلس امام الدكان ، وأصر ان نشرب معه القهوة . ونظر طويلا الى الضابط المصرى ، ولما وجدناه يرسل لنا القهوة ، قال عبد القادر باسما للضابط :

- ابو سعد يثق فيك ويقول مرحبا .

الضابط المصرى يسأل وعبد القادر يجيب أو يسأل عبد القادر والضابط المصرى يجيب ونحن نستمع . نعم لقد جئنا لنتدرب على يد الانجليز ، ولكنهم لا يدربوننا . لا تدريب على الاطلاق ، الماجور وينجت يكره العرب ويكره المصريين ، امسك بأوراقى ونظر الى باستخفاف وسألنى اذا كنت أريد ان اتدرب حقا ، فلما قلت له انى أريد ان اتعلم ، قال بغيظ ، تتعلم كيف تقاتل ، لماذا ، اتريد أن تقاتلنا ام تقاتل اليهود . ان التدريب الوحيد الذى استطيع ان اقدمه لك فى هذا المعسكر ، هو فى الشئون الادارية ، ولكن حتى هذا لم يقدمه . وانصرف الى نقل السلاح امامنا جميعا الى المستعمرات اليهودية ، تحول المعسكر الى مستودعات سلاح لمستعمرات اليهود . وتدريب مستمر للفتيان والفتيات الذين يأتون من المستعمرة .

كان يرشف القهوة ، وينظر الى ويبتسم ، لعله يتذكر لحظة لقائنا أمس ، لعله تذكر اليهوديات فوق السيارات يجلسن فوق الذخائر المكدسة ، بينما اتلفت حولى خائفا لاستعيد مفجرا خبأته منذ امد بعيد . سمعته يقول :

- البنات فى المعسكر يبتسمن لى ، عينى عينك ، اذا التقت عيناى بواحدة ، غمزت بعينيها ، واذا اقتربت منها خطوة ، اقتربت منك خطوتين ، واذا اردت منها قبلة اعطتك جسدها . وفى اى مكان . خلف السيارة لا يهم ، وراء باب لا يهم ، حجرة مكتب لا يهم . اينما تريد..

انطلق صوت عبد القادر ساخرا :

- هل جربت ؟

قال بسرعة :

- استغفر الله .

وساد صمت ، لا يريد احد ان يلح عليه بالسؤال ، اما هو فتخلص من الحرج بضحكة عصبية وقال :

- من الصعب ان يستطيع بشر ان يهرب من الاغراء .

همست بانفعال :

- هذا طبيعى .

لابد انى فضحت نفسى .

فالعيون تحاصرنى ، والضابط يسألنى :

- أليس كذلك ؟

واردف يشرح لهم :

- لو انك رأيتها وهى تخلع ملابسها فى القيظ ، وتسكب الماء على شعرها ورأسها فينساب بين ثنايا جسدها العارى ، ثم تكتشف انك واقف مسمر تحدق فيها ، فسوف تضحك مسرورة لانها فتنتك وتغمز لك بعينيها . لابد ان تكون قديسا .. ها.. ها . ها .. المليحة وقفت للعابد بباب المسجد .. ولكن هذه ليست فى خمار اسود .. انها فى عرى ناصع البياض .. ها .. ها .. هذه الحرب فيها العجب .. عليك ان تحارب اجساد

نساء . ليس فقط سلاح رجال .. لديهم اسلحة اخرى كثيرة .

صاح عبد القادر :

ـ لا تبالغ ياأخى ..

قال الضابط :

ـ صدقنى .. انهم يحاربون بكل شىء .. حتى أجساد نسائهم ..

قال عبد القادر :

ـ الانجليز وراء كل هذا .. نحن نحارب انجلترا .

قال الضابط :

ـ يخيل إلى احيانا أن وينجت خاضع لتأثيرهم .. سال لعابه وراء اليهوديات .

نفسر الاحداث بالجنس ، نراها من خلال الغرائز ، واحكام الشهوات ، لن أرى بلادى من خلال جسد امرأة ، حتى سارة لم تعد فتاة ولا امرأة ، ولا أنثى ، انها كائن مسخ ، سلاح ، فى يد الانجليز ، سارة وهم ، وفتياتهن مثل جنيات الحكايات كلهن وهم ، اعرف انهن أوهام ، عندما استلقت سارة على ظهرها تدعونى ، ايقنت انها لم تعد انثى ، حتى لم تعد عاهرة ، جسدى انبأنى بالحقيقة قبل أن ادركها بعقلى . كائنات شائهات ، صنعن حسب مواصفات خاصة . مثل مواصفات البنادق التى نتدرب عليها وانواع القنابل التى نتمنى تفجيرها .

قال الضابط :

ـ عليكم أن تتحولوا الى ادوات للقتل .

قبل أن يتركنا ، كان قد اتفق مع عبد القادر على خطة سوف يدرسها ويشرع فى تنفيذها . سوف ننقل الذخائر والسلاح من سيناء . لا نستطيع ان نحصل على السلاح من المعسكرات الانجليزية ، فكل ما فيها يتدفق الى ايدى اليهود ، المسافة بين المعسكر والمستعمرة لا تزيد على ربع ساعة بالسيارة ، المسافة بين رفح والقدس يومان ، عبر جمارك ومراكز تفتيش لابد من الالتفاف حولها ، وطرق لابد من تجنبها ، ورقابة يتعين الافلات منها . ولكن لابد ان يصل السلاح . لابد ان تكون الذخائر معكم .

ولا تتأخروا لحظة فى التدريب .

عندما اصبحنا وحدنا ، ارتفع اكثر من صوت يتساءل :

ـ هل وثقنا اكثر من اللازم فى هذا المصرى ؟

قال عبد القادر :

ـ لا أظن أنه يغدر بنا . وانطلق سؤال :

ـ وما الذى يثبت لك ذلك ؟

وضع عبد القادر يده على قلبه وقال :

ـ لا املك الا هذا .. قلبى يطمئننى .

علينا ان نحارب بالعواطف ، بالمشاعر ، فى غياب الحسابات ، وقلة المعلومات . وارتفع صوت :

ـ الله معنا .

وطفرت من عينى دموع غضب . كنت أشعر بالذنوب التى لا ادرى كيف اتطهر منها .

عندما انصرف الرجال ، استبقانى عبد القادر وسرنا وحدنا ، كان علينا ان نجتاز مياشعاريم وروميما .

ـ اتعود وحدك ياعبد القادر .

همس :

ـ لا .. سأذهب معك .

قلت فى جزع :

ـ لا اطمئن لابى ، لا يريد الاحتكاك بهم .

قال فى ثقة :

ـ عندما يرانى .. لن يخشى شيئا ..

فى الطريق ، ألح أن أبوح له بمكنون أسرارى . عندما وصلنا الى ذلك الوادى قبل البركة ، وقبل أن نمر بالطريق المفضى الى المستعمرة ، كنت

احكى له كل ما فى جوفى عن سارة .

همس : لا يريد ان يقحم صوته على سكون الليل ، وقد انقطع صوتى ولم نعد نسمع سوى وقع أقدامنا وهمهمة ريح :

ـ لسنا ضد اليهود .

واردف :

ـ اليهود .. والنصارى . اصحاب ملة .. ولهم علينا حقوق .. نحن شهداء عليهم بالعدل .

وتوقف . ومد يده الى كتفى وقال :

ـ الحاج امين لا يكرههم . واذا كان قد ذهب الى هتلر .. فهو لن يقدم له فتوى ضد اليهود .

وارتفع صوته قائلا :

ـ ولكن هؤلاء الغرباء ، جاءوا ليبطشوا بنا .. لسرقتنا .. انه امتحان لنا جميعا ..

بعد شهور ، سوف يصرخ عبد القادر فى غضب :

ـ لن اكرر خطأ فوزى القاوقجى .. لقد كنت مع أبى نزور شيخا مريضا بالسل كان من رجاله . حدثنا كيف اضطروا الى مهادنتهم بعد أن تدفقت عليهم العهود . كان الرجل يسعل دما وهو يقول لا نريد كتابا أبيض ولا كتابا أزرق ولا كتابا أسود . لا نريد كتبا . فهؤلاء الملاعين لا يعرفون كتبا فى الأرض ولا كتبا فى السماء .

وانطلقت صيحاته :

ـ انسفوا شارع هاسوايل .. انسفوا شارع بن يهودا .. انسفوا مركز الوكالة ..

كان لابد ان ندافع عن أنفسنا . كان لابد أن افترق عن أبى ، عودتى الى الدار عبر أحيائهم غير مأمونة . الحجر الذى اصابنى وأنا صغير سيتحول الى رصاصة فى رأسى الآن . رأيتهم يهاجمون مركز الشرطة وكان يوسف رودريجز بينهم . كان يجرى مبتعدا وأنا أرقبه من نافذة بسام . لم يعد هو

يوسف الذى كنت أعرفه . لقد أنضم الى الأرغون يعمل تحت امرة رجل بولندى اسمه مناحم بيغن .

يقولون انه جاء من سيبيريا .

سألنى بسام :

ـ أتعرفه ؟

ـ نعم .

ـ أى نوع من المعرفة .

همست :

ـ أبى كان يعمل معهم .. بيع وشراء ..

قال :

ـ حذار .. كل شىء لم يعد كما كان . الذين يعرفوننا أخطر علينا من الغرباء .

سألته فى دهشة :

ـ كيف ؟ !

قال :

ـ لانهم خائفون .. سيبيعوننا للغرباء ليكسبوا ثقتهم .

قلت :

ـ كنا نسخر معا فى وقت من الأوقات من هؤلاء الغرباء . كنت أرى سارة وهى تقلد ديبوراه ، وتطلق سرسعة تقلد بها غناءها الأوروبى .

وبلعت ريقى وقد تذكرت أنى وداود قلنا لضابط انجليزى اننا اصدقاء . عدت أرى عينى الرجل . اراهما الآن ساخرتين يطل منهما شيطان .

كان الناس يتزاحمون فى الطريق ، عيون ساخرة وعيون هازئة وعيون فيها قسوة . وبنات يرتدين ملابس العمال يرصفن مدخل حارة بيت اسرائيل . سارة وديبوراه فى فرقة البنات ، فرق بينهن الطرب وجمع بينهن العمل بالزفت والقطران فى رصف الطريق .

١٣

الليل يهبط والقلق يزداد . فى انتظار هجوم الصباح . رقدت على بطنى ، اضغط على صدرى لتهدأ مشاعرى . أضغط على بطنى لتخف وطأة غثيان يمنعنى من النوم . سمعت خطواته تقترب .

ـ ماذا بك ؟

يده تلمس جبينى :

ـ هل تشعر ببرد ؟

جذب بيده الغطاء وهمس :

ـ نم جيدا .

متى يذهب عنى هذا الكابوس . داهمنى منذ رأيت شراكسة الأنصارى قادمين يطلبون المال . الشراكسة انتهوا الى يهود . الثعبان ما زال يغير جلده ، ولكنى أنا أيضا تغيرت . لم أتوقع أبدا ان ينتهى امرى الى خندق ، وطريق ، وديناميت ونسف . ما هكذا اراد لى أبى الحياة ، ولا مدرسة الجمعية الاسلامية ، لا أحد على الأطلاق قال لى من البداية .. استعد ، لانك بعد سنوات سوف تقاتل . سوف تدافع عن حياتك وشرفك . لن تجد فرصة لتلتقط انفاسك فلو غفلت لحظة اغتالوك واغتالوا شرفك وعرضك .

الطريق يصعد فى اتجاه القدس ، والطائرة الانجليزية تحلق فوقنا ، تحوم وتحوم وطنينها لا ينقطع ، ثم تدور دورة كاملة فى السماء قبل أن تتجه الى الغرب مبتعدة . عيوننا تراقبها فى وجل . ليست لدينا طائرات ، وليست لديهم طائرات ، ولكن الانجليز يراقبون الموقف . ووينجت ورجاله ينقلون المعلومات مثلما ينقلون القنابل فى كل لحظة الى اليهود . هناك عدة دروب صغيرة تفضى الى الروابى والبيارات والبساتين ، كلها مهجورة فى انتظار الهجوم . سوف نهجم على أرضنا ، سوف نقتحم ديارنا ،

لنستخلصها من براثن هذا الوباء . عندما نطردهم من ضيعة الأنصارى سوف تنطلق الافراح وتعلو زخات الرصاص .

سألته وهو راقد بجوارى فى الخندق :

ـ لمن تعود الضيعة ؟

أجاب :

ـ لنا .

سألته :

ـ أنا .. وأنت ..

صمت وبدا عليه أنه يفكر فى أمر صعب . ورفع صوته :

ـ لا أعرف .

ومضت لحظات ، وحك شعيرات نابتة فى ذقنه قبل أن يسألنى :

ـ هل من الضرورى أن تعرف ؟

أجبت :

ـ نعرف ما الذى سوف ينتهى اليه الحال .

هز رأسه بوقار كأنه يعرف انه سيموت بعد ساعات وقال :

ـ سوف نفعل كل ما نستطيع ان نفعله ..

وتهدج صوته وأردف وأظافره فى التراب تشقه .

ـ سوف نخلط اجسادنا ودماءنا بهذا التراب .

وابتسم ابتسامة عذبة . وهو يقول نابشا التراب :

ـ وننتظر هنا ..

سألته :

ـ ماذا تنتظر أشلاؤنا فى التراب .

قال ببساطة :

ـ عودتنا .

سألت بسذاجة :

ـ كيف نعود وقد متنا ؟

قال :

ـ لاننا باقون هنا ..

وارتفعت ضحكته ، كأنه انتشى بتصوراته واطمأن اليها فدفعني في كتفي وعيناه تلمعان بالنشوة .

ـ أليس كذلك ؟

سوف يسقط عندما أطلقوا قذيفة الهاون . بسام الخشن . الذي أراه الان وجسدي ملتصق بالتراب ودمي لزج يمد جذوري في الأرض فأشعر اني أعانق بسام . لن يرانا التاريخ . لن يذكرنا المجد ، فقد سقطت كما سقط هو صامتا ، ولن يرى أحد ما رأته عيناي ، قبل أن أترك القسطل قادما الى هنا .

كنا نتصايح ، انهم خائفون . يندحرون ، قلة بلا حول ولا قوة ارانب ، واراذل . لو تجمعوا فان يزيد عددهم على مائتين . من اين لهم ان يحشدوا قواتهم هنا بالذات . ما ادراهم اننا هنا ، أو هناك . فالطريق من تل أبيب الى القدس يبتلعهم اذا ارادوا الانتشار فيه . لم نتبين ان الطائرة التي حامت فوقنا سوف تدفعهم الى التعجيل بالهجوم . عندما دوى أول أنفجار كنّا واثقين اننا سنهزمهم بسهولة ، سوف نسحقهم قبل أن يأتي الليل .

هذه هي نهايتهم سوف نضربهم من كل اتجاه وفي أي اتجاه .

عبد القادر يرفع صوته :

ـ حافظوا على قواكم .. لن نعرف النوم قبل أيام .. حافظوا على ذخيرتكم . مؤونتكم .

صوت الهواء يحمل عويلا ، والسحاب ينعقد ويتبعثر بلا نظام . كل ما حولنا يهمس ، الصخور ، والروابي ، والاشجار في الوادي ، حتى اشكال أجسادنا ترسم كلمات غامضة تقرأها العين ، ويخفق لها القلب ، دون أن يحدد مضمونها .

فجأة قال بسام :

- نحن مازلنا نأخذ الأمور ببساطة

- لماذا .

- نحن نناقض أنفسنا .

- كيف ؟

- نقول أننا قادرون على سحقهم .. ونقول أن الانجليز بامبراطوريتهم معهم .

هناك على الربوة . عند خط الأفق ، ظهر خط أسود من الدخان . على يميننا الوادى يتجه شمالا ، تحده هضبة فى الشرق ، وعند الهضبة خط أسود آخر من الدخان . وتقدم عبد القادر ممسكا بنظاراته ينقلها بين الربوة فى اتجاه تل أبيب ، والهضبة من جانب القدس . قبل أن يهبط النظاره كنا نسمع حوافر الفرس تقضم مسافة بعد أخرى من الطريق . مثل هذه السرعة تحمل أنباء . يهبط الراكب ويتقدم من عبد القادر . منذ ساعة رآهم يتكاثرون ، قادمين فى عربات ، الروابى تحجبهم ، ولكنهم هناك هذا الدخان الكثيف يتصاعد من سياراتهم ، يتصاعد من طلقات الرشاشات يفزعون بها الناس ، لا وقت للتفكير ، لا وقت للتنفس .

هتف عبد القادر بين أسنانه :

- سوف نسحقهم .

عند منحنى الوادى ، تقدمنا مازال كل ما نراه طريقا مهجورا .. الهدوء ينذر بالعاصفة .. تقدمنا ولا أحد يعترضنا وفجأة انهالت النيران ، أمطارا ، مدافع الهاون والمورتار ، وحلقات ودوائر ترتسم على الأرض .. وحفر تفغر فاها فى انتظار جثثنا .

وصاح بسام :

- اختبئوا فى الحفر .

انه يطمئن الى الأرض .. يحمى بها نفسه حيا ، ويلجأ اليها لينتظر . قبل أن نصل الى الحفرة ، كانت أشلاؤه تتطاير تسابق رغبته فى الوصول الى حفرة جديدة كأنها مصنوعة خصيصا له . سقط كأنه يرقص ليلة زفافه . جاء الى القتال بنشوة العريس يزف الى عروسه .

وقف حاييم بورات أعلى الهضبة يرقب من خلال نظاراته المكبرة . القنابل تسقط علينا .. خرج فى الفجر من المعباراه واتجه الى بيت هاكنيست يصلى .. كان أقرب الحاضرين الى الحائط الشرقى للمعبد وسوف يخرج بعد الصلاة ليقود ثلاثة آلاف يهاجمون الموقع الذى أرشدتهم اليه رسالة الماجور وينجت قائد فرق الليل الخاصة . مع النهار سوف تكتشف الطائرات الموقع وسيبدأ الهجوم فى الحال . بليتز كريغ لا مجال للتردد . لقد اصبحت لهم هيبة بعد عملية "تشك" .

شالوم .. عليكم ان تنفذوا فورا عملية "تشك ، وبيت" عبدك .. ومخلصك .. كانت هذه هى بداية الفزع الحقيقى . انفجرت مبانى الحكومة فى عملية عبدك ومخلصك . وأصدر حاييم اوامره لداود :

ـ احضر الحليب من سوق تلك القرية ..

قال داود :

ـ ولكن المسافة بعيدة . قال حاييم :

ـ بعيدة عن المخاطر .

داود يعرف الطريق ويعرف هذه البركة ، ومازالت النسوة يتجمعن . عربيات ويتحدثن بالعبرية ، يبعن البيض والدجاج والحليب . هذا هو الطريق المفضى الى سارة . مضت سنوات ولم يرها . وهناك كان يجرى مع الفتى المسلم أحمد . وكانت هناك شجرة زيتون ، اختفت واختفت معها شقيقة أحمد . عاد بأوعية الحليب . ليفحصها حاييم وليشرع ليف فى حشوها بالديناميت .

وضحك حاييم :

ـ هذا حليب دسم .. ملىء بالفيتامينات .

فتح الحارس الباب الخلفى بفندق داود ، وحمل داود وليف أوعية الحليب الى مدخل المطبخ . دقت الساعة الثانية عشرة ظهرا وانفجرت أوعية الحليب ، وانهار مبنى الفندق واختلطت اشلاء رجال المخابرات الانجليزية بدمائهم بأوراق ملفاتهم . ذبحنا الانجليز ، ذبحنا أسيادكم ياعرب . ليستولى عليكم الذعر قبل أن نهاجمكم فى دياركم .

ـ أنت تعرف تلك القرية ياداود ؟

ـ نعم أعرفها .

ـ اذهب مع الرجال . وطهروها منهم .. لا يبقى أحد . نظفوها حتى لا يعترضنا أحد ويخلو لنا الطريق من الكوبيتز حتى القدس .

مدافع الهاون عيار ٣ بوصات سوف تمزق من يعترض .. وداود يستعد للتحرك مع القافلة التى سيرشدها الى القرية التى يعرفها .

تصاعد الدخان يطلق غلالات سوداء . وغصة فى حلقى ، أريد أن أقول كلمات ، ولكنى أفقد قدرتى على الافصاح الشمس تزداد حرارة ، ولكن الغمام الذى تطلقه قنابل الهاون يزداد كثافة ، واراهم عند خط الافق مازالوا يتكاثرون .

ـ انهم ليسوا بالمئات كما كنا نتوقع . من كان يعلم أن المائتين وراءهم ألفان .

الهضبة تغطيها أجسادهم الزاحفة . وظهرت رايات ورجال يحملون تابوت الشريعة .. وصاياهم ، وصرخات كعواء ذئاب ، وطلقات الرشاشات . يتقدمون بسرعة أمامهم جهنم .

وصاح عبد القادر :

ـ لن ننتظرهم .. نهاجمهم الآن .

عيناه تريان سؤالى حيرتى . أمام كثرتهم ..

أجاب قبل أن أنطق بكلمة ، وهو يشير فى اتجاه الغرب :

ـ أنظر . أنهم قادمون من هناك أيضا ..

خطوط سوداء تتكاثر عند الروابى التى كانت مهجورة منذ ساعة . لو بقينا مكاننا سوف يحاصروننا . علينا ان نقتحم صفوف القادمين من الهضبة ، لنعود الى القدس . الصدور تلهث من الغضب .

ـ أستحلفكم بالله تماسكوا ، لا تتباعدوا .. لابد من تركيز نيراننا على جناحهم الايسر لنفصل بينهم وبين الجانب الشرقى للهضبة .. السرعة واجبة ، وكل لحظة تمر ، يتدفقون من معسكراتهم . والصرخات ترتفع وتتداح فى أعماق الوادى . وسقطت قنبلة مزقت شظاياها ثلاثة على يسارنا ، وقف أحدهم قبل أن نصل اليه ، كتفه ممزق ، ولكنه يواصل

السير . قبل أن نلحق به إنفجرت قنبلة أخرى وسقط امامى عبد القادر . انه لن يموت ، مستحيل أن يموت ، حملناه ، وجرينا لم نعد نرى شيئا ولا نسمع شيئا . حتى وصلنا الى الطريق ، وظهرت لنا سيارة الصليب الأحمر ، كما لو كانت معجزة هبطت من السماء . قبل أن نصل الى السيارة ، كان عبد القادر يلفظ أنفاسه الأخيرة ويودعنا .. فى عينيه ابتسامة . هكذا خيل الى ، كأنه عرف سرا فرح به .

وصلت المجموعة التى يقودها حاييم يورات الى القلعة التى كان يملكها يوما ما شوكت الأنصارى ، وكانت فرقة من الفتيات قد خرجن فى أنتظار قدوم الرجال . والتقت عينا دواد بعينى سارة . سوف يتقدمون الآن الى القرية ، وسوف ينطلق صوت داود من مكبر الصوت فى العربة ، ينذر السكان باخلاء دورهم فورا . وسوف يسلم مكبر الصوت لسارة ، لتعلن بصوت رفيع حاد أن أى امرأة سوف يجدونها امامهم سوف يتركونها للرجال يهتكون عرضها . صوت سارة يرتفع ساخرة . التى تنتظر سوف تجد رجالنا مستعدين . اخلعى ملابسك وتجردى من كل ثيابك واستلقى على ظهرك فى انتظار الرجل القادم اليك . ويرتفع صوتها متشنجا ، لدينا من الرجال ما يكفى الجميع .

واعادت مكبر الصوت لداود . ليعلن أن القرية محاصرة من كل جانب . والذى يريد أن ينجو بنفسه ، يترك كل شىء ، ويسرع الى التلال فى اتجاه الشمال .

هيا يارجال أورغون هيا يارجال شتيرن . هيا يافتيات اسرائيل ، هاهى الفريسة تنتظركم . أنت تقتل اذن أنت موجود .

سوف يكتبون فى المستقبل . ان هذه القرية كان أهلها مسالمين ، لم يتورطوا أبدا فى نزاع مع اليهود . علاقاتهم قوية من خلال السوق عند البركة باليهود . النساء العربيات تعلمن العبرية ليخاطبن الزبائن اليهود . قدمن أفضل ما لديهن من بيض ودجاج وحليب لليهود واشتغل أبو مروان فى اقامة الصهاريج فى مستعمراتهم ورحب مختار العجوز بالدكتور روزنبرج مالكا جديدا لضيعة الأنصارى .

.. لم يصدق مختار العجوز ما سمعه ، ينطلق من مكبر الصوت ، هذا مستحيل . لا أحد يجرؤ على اخراجنا من ديارنا ، الانجليز تعهدوا بحفظ

الأمن . قدموا لنا الوعود .. ولكنه اضطر الى أن يقطع كلماته التى تحولت الى هذيان وهو يسمع صوت انفجار وترتفع الصرخات . وقبل ان يستقر على رأى يقوله لسعاد وحولها ابنها فى الثامنة وابنتها فى الثالثة . والجنين فى بطنها . كان الرجال الثلاثة يقتحمون الحجرة ، وقبل أن تصل الرصاصة الثانية الى رأس مختار ، كان قد رأى ولديه يسقطان برصاص رشاش ولم ير السونكى يبقر بطن سعاد ، ولم ير تلك الفتاة التى كان اسمها يوما ما ديبوراه تصيح مهللة . هذا ولد . وتنهال بخنجر تقطع به أوصال الجنين ، ولذة نهمة شديدة الشراهة تجتاحها من فمها الى بطنها ، ثم تنطلق لاهثة وراء الرجال تبحث عن المزيد من البطون المبقورة والاجنة التى وجدت فى تقطيعها متعة ليس بعدها متعة .

وكان أبو مروان يصلى . انه لم يخطىء ، وقد سلم أمره لله ، وهو صاحب الأمر من قبل ومن بعد . الله أكبر .. الله .. سمع الله لمن حمده ، ولم يكمل فقد هوت على مؤخرة رأسه بندقية . لا داعى لاستهلاك الرصاص فى قتل جسد لا يقاوم . ارتطمت رأسه مهشمة بالأرض ، فعاجلتها ضربة أخرى ، فتدفق الدم من الرأس يروى الأرض ويبلل سجادة الصلاة . وسقط مروان بخنجر ينفذ فى بطنه ويخرج أمعاءه ، بينما يداه قابضتان على رقبة قاتله ، ووقف حسان عند باب حجرة تجمعت فيها النساء والعيال . ولم تترك له زخات الرشاش وقتا ليتدبر الأمر . ذبحوهم جميعا . ولكن أم أحمد كانت مختبئة بجسدها العجوز الضئيل مكومة بجوار سلة عليها ملابس قذرة فى انتظار الغسيل .

أرى أمى ، مازالت تتنفس ، راقدة على الأرض ، ملتصقة بدماء لزجة حولها جثث الذين عاشت معهم ولهم . لو تقدمت خطوة زاحفة بجسدها فسوف تسبح فى دماء زوجة حسان ، ومن بعدها قطع ممزقة من العيال . وحسان يسد بجثته الباب . ولكنها لا تتحرك ، ولن تقوى على الحراك . أشعر ان الله أنعم عليها بذهول فلا تفهم ولا تعى . ولكن روحى تحوم فوقها ، وستظل تحوم ، حتى يصل اليها من ينقذها .

ارى سارة فى فناء دارنا ، تقترب من أبى ، تميل عليه ، عيناه نصف مغمضتين ، اتريان ، مازال جسده دافئا . مرت بالسكين على رقبته ، نحرته . فالان اقتلوا كل ذكر من الأطفال . وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوها . وقال العازار الكاهن لرجال الجند الذين ذهبوا للحرب هذه

فريضة الشريعة ، الذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والرصاص كل ما يدخل النار تجيرونه فى النار فيكون طاهرا .. احصى النهب المسبى من الناس والبهائم ونصف النهب بين الذين باشروا القتال الخارجين الى الحرب وبين كل الجماعة . انها الشريعة .

١٤

دق جرس الهاتف صباح السبت ١٠ ابريل فى مكتب مسيو جاك دى رينيه رئيس بعثة الصليب الأحمر فى القدس وسمع جاك صوتا متهدجا غلبه الانفعال :

ـ اين انتم يارجال الصليب الاحمر . انتم جالسون فى مكاتبكم بينما مئات الجرحى فى قرية د .. اذا لم تصلوا اليهم فى اسرع وقت سوف يجهز عليهم اليهود .

اجرى جاك عدة اتصالات هاتفية ، فعرف ان الانباء التى وصلته صحيحة . وانه لابد ان يتحرك بسرعة لانقاذ ما يمكن انقاذه من الضمير الانسانى الذى يرفع راية الصليب الاحمر .

وكان الذى تحدث مع مسيو جاك ، مدرس انجليزى قضى سنوات عمره يدرس اللغة الانجليزية لتلاميذ المدارس فى بغداد ثم القدس ، فزع الرجل وهو يرى ان تلاميذه الذين تلقوا على يديه لغة شكسبير وميلتون يذبحون وهناك فى المكتب المجاور له فى مبنى الحكومة رجل انجليزى يهلل ضاحكا كلما وصله عبر الهاتف ان العرب يتساقطون قتلى وجرحى بالمئات على يد عصابات ارغون وشتيرن . لم يتحمل المدرس ان تكون حصيلة عشرين عاما من التدريس لتلاميذه من شباب العرب ، التنكيل بهم وذبحهم على يد اليهود تحت اشراف وتشجيع وتهليل مواطنين ينتمون الى نفس بلده انجلترا .

ما كادت تتحرك عربة الاسعاف من مقر الصليب الاحمر حتى نهاية الشارع حتى اوقفها حاجز يقطع الطريق ويقف عليه مجموعة من الشبان يمنعون خروج السيارة من الشارع . عاد الطبيب هانز أولافسون وهو نرويجى يجلس بجوار سائق السيارة الايطالى وفى داخل عربة الاسعاف الاخت مارى الراهبة الفرنسية . وقال هانز لرئيسه جاك :

ـ الطريق مغلق لايسمحون لنا بالمرور .
اتصل جاك بالوكالة اليهودية. سمع صوتا يقول له :
ـ لاشأن لنا بهذا الذى تتحدث عنه .
ـ إلى من الجأ اذن .. من اتصل به ؟
جاء صوت عبر الاسلاك يسأل جاك :
ـ هل انت واثق مما تقول ؟
ـ نعم .
ـ من هو مصدرك ؟
ـ هتف جاك :
ـ سيدى .. ارجوك ان تسمح لى ان اؤدى واجبى حسب اتفاقية جنيف التى وقعتم عليها .
سمع الصوت يقول بجفاء قبل ان يقطع المكالمة :
ـ اتصل بالهاغناه .
وجاء صوت يهدر عبر اسلاك الهاتف من مقر الهاغناه :
ـ ماذا تقول .. الصليب الأحمر ؟ وماشأننا بالصليب الاحمر ؟!
حاول جاك ان يشرح . كأنه يتحدث عن خرافة ، عن بدعة لم يسمع بها أحد من قبل .. هناك شيء اسمه الاسعاف .. وهناك شيء اسمه الانسانية . وهناك قتلى وجرحى .
قال الصوت ببرود :
ـ سيدى لاشأن لنا بهذا .
صاح جاك غاضبا :
ـ سأضطر الى ابلاغ رئاستى فى جنيف فورا لتتدخل .
جاء الجواب باترا .
ـ قلت لك لاشأن لنا .. انت تتحدث عن منطقة تحت اشراف الأرغون وشتيرن .
صاح جاك :
ـ كيف اتصل بالارغون .
جاء الرد :
ـ ننصحك الا تتصل .
رفع جاك صوته .. انه لايصدق مايسمعه :

ـ سيدى انى رئيس بعثة الصليب الأحمر .. ولم احضر الى القدس لأجلس فى مكتبى .. استمع لاخبار عن جرحى وقتلى ..

لم يكمل . فقد سمع صوت انقطاع المكالمة .

كل هذا وهانز أولافسون واقف بالباب . ينتظر ، ويستمع مذهولا .. الى هذا الكابوس الذى يخيم على الحجرة . ان الضباب عندما يجتاح الأرض فى بلاده . وتنعدم الرؤية . تصفو النفوس لتعوض عتمة الخارج باشراقة فى اعماق النفس ، لا احد من البشر يتحمل العتمة فى الخارج وفى اعماق نفسه . ولكنه يشعر الان أن الغمام يجتاحه ايضا ، يخرج فى دوامات فواره من كوامن اجساد بشرية لايكاد يصدق انها اجساد بشرية حقيقية ، لابد انها مجرد اشكال على هيئة بشر ، اتخذت لنفسها أسماء هاغناه وارغون وشتيرن وتقف عقبة دون اتصال البشر بعضهم ببعض ، وتقيم حدودا وحواجز بين بشر يريدون ان يساعدوا بشرا .

صاح هانز اولافسون :

ـ هذا جنون .

وانطلق يجرى خارجا ، قرر ان يقتحم بسيارة الصليب الاحمر الحواجز فاما ان يجتازها او يصوبون اليه الرصاص ويقتلونه ، وليعلم العالم انهم قتلة ؛ قبل ان يصل الى الطريق ، كان جاك قد لحق به .

ـ الى اين ياهانز ؟

صاح الطبيب بانفعال لايريد ان يسيطر عليه :

ـ لابد ان أؤدى واجبى .

قال جاك وهو يمسك بذراعه :

ـ ستعرض نفسك ومن معك للقتل .

ـ ولو .. لن اتراجع .. وليعلم العالم ..

قاطعه جاك وهو يهزه لعله يفيق من تهوره .

ـ انهم يسخرون من العالم .. لايهمهم اى شىء .

قالها وهو يفكر فى حادث لورد موين صديق تشرشل ، قتلوه دون ان يترددوا لحظة .. ومع ذلك مازال الانجليز يساعدونهم .. والاميركان يساعدونهم . والروس ايضا .

هتف اولافسون :

ـ لااحد يقف مع وحوش تذبح الاطفال والنساء .

قال جاك :

ـ قبل ان يسمع احد عن هذه المذابح ، سوف يغرقون العالم باخبار وصور مذابح هتلر لليهود . سوف يرتفع بكاؤهم وعويلهم ليدوى فى ارجاء العالم .. انهم المعذبون على يد النازى .

قال اولافسون :

ـ لايعنينى هذا .. سوف اصغى فقط لانين من تسيل دماؤهم الان .. سوف التفت الى حشرجة من خرجت احشاء بطنه .. سوف اسارع الى من يسعل الدم ، ومن فقد الحركة لان ساقه مهشمة ..

جاءت الاخت مارى وقالت لجاك :

ـ سيدى .. قد استطيع ان اقدم مساعدة .

ـ كيف ؟

همست :

ـ هناك من اعرفه وقد تكون لديه كلمة بينهم .

الممرضة الاخت مارى سهرت اسبوعا بجوار اسحق شرتوك حتى استرد انفاسه ألتى اوشكت ان تضيع منه الى الابد لم تفارقه حتى عادت الحياة تدب فى جسده . كان يقول لها :

ـ لقد انقذتنى .

ثم يردف قائلا :

ـ ومع ذلك .. لو قتلتنى الرصاصة التى اخترقت صدرى .. لما اهتممت .. فها انذا فى ارتز ازرابيل يكفينى ان هذا الذى كنت احلم به قد تحقق ، كنت احلم بمعجزة الوصول الى هنا وانا فى الخنادق اتوقع الموت فى اية لحظة .. لو كنت دفنت فى ارض اخرى لكان على ان ازحف احفر طريقى الى اورشليم .. جئت الى هنا وقد استقر فى يقينى ان الارض لنا .. وان لنا جيشا .. فماذا وجدت .. كتابا ابيض يحرم علينا ان تكون لنا دولتنا .. ارتز ازرابيل مازالت فى يد العرب مسلمين ومسيحيين .. ومطلوب من امثالنا ان نخرج منها ولانعود .. ولكن الرب انقذنى لاحارب .

قالت له الاخت مارى .

ـ الرب ينقذنا لنعيش فى سلام .

قال بعصبية :

ـ انت مسيحية .. وانها يهودى .. انت تريدين السماء .. وانا اريد هذه الأرض .

قالت الاخت مارى :
ـ انا اصلى لك .
فنظر اليها متحديا وقال :
ـ حتى لو قلت لك ان اورشليم لنا .
قالت :
ـ ماذا يفيد الانسان ان يكسب اى ارض ويخسر نفسه
قال ضاحكا يتحداها :
ـ ايتها الاخت .. انا لااعرف غير هذا العالم .. ولا اصدق هذه التمثيليات التى تقومون بها .
واستولى عليه هياج مفاجىء فصرخ فيها وقد استرد عافيته :
ـ ملآبسك هذه تقول انك ممثلة .. تخدعين الناس ..
كانت تنظر اليه بعينين صافيتين وديعتين .. وانطلق يسبها ويشتمها .
وفجأة هجم عليها يمسك بيدها صارخا :
ـ سامحينى .. لقد انقذت حياتى .. فإذا اردت شيئا فانا خادمك .. اى شىء فى هذه الدنيا .
وحاول الابتسام وهو يرفع اصبعه مشيرا الى السماء :
ـ اما فوق .. فهذا شأنك ..
الان تذكر الاخت مارى ماحدث مع اسحق شيرتوك ، وكأن الرب قد دبر لقاءها به ، لتتصل به الآن ، فهذه هى تصرفات الرب وتدابيره التى لايدركها البشر :
قال لها اسحق شيرتوك ؛
ـ نعم اذكرك .
قالت :
ـ نريد السماح لسيارة الصليب الاحمر ان تذهب الى قرية . د ..
هتف :
ـ لماذا ؟
قالت .
ـ لنؤدى واجبنا .
صرخ :

ـ لقد ادينا واجبنا .. وانتهى الأمر .
قالت :
ـ اسألك ان نذهب الى هناك ؟
قال :
ـ لامعنى للذهاب .. لايوجد جرحى ..
قالت :
ـ لقد وعدتنى ان تجيب ما اطلبه منك .
قال ساخرا :
ـ اهذا طلب يستحق ان تفكرى فيه .
وسكت لحظة قبل ان يقول :
ـ بعد ساعتين سوف يصل الى مقر الصليب الاحمر من يقود السيارة الى حيث تريدون .

وجاء شاب احمر الشعر . يرتدى القميص والبنطلون وعلى عينيه نظارات سميكة . وقد تدلى من حزام حول وسطه مسدسان ، واحد من رعاة البقر ، لولا النظارات . وركب بجوار السائق قائلا بلهجة سريعة تفضح انفعاله .
ـ هيا بلا توقف .
عبرت السيارة كل الحواجز .. كانت اشارة من راعى البقر تكفى لان تمرق بلا اعتراض . حتى خرجت من القدس ، وهنا اوقف الشاب السيارة وهبط منها قائلا لهانز اولافسون :
ـ هنا تنتهى مهمتى . واذا اردت ان نتقدم فهذا على مسئوليتك الشخصية .
وابتعد الشاب عن السيارة بخطوات سريعة كان يتوثب فى مشيته بينما واصل هانز اولافسون والسائق الايطالى والاخت مارى طريقهم . بعد كيلو متر واحد ،أوقفهم شاب عربى بجواره جريح ممد على حافة الطريق .
هبط اولافسون ليتعرف على حالة الجريح .. وجده ميتا وصاح الشاب العربى غير مصدق :
ـ انقذوه .
قال اولافسون بصوت وقور حاسم :
ـ فات الأوان .. لاتستطيع ان تفعل شيئا .

صرخ الشاب :

ـ ربما لو ذهبتم به الى المستشفى ..

قاطعه اولافسون :

ـ نحن مضطرون الى الذهاب الى قرية د .. هناك جرحى احياء يحتاجون الينا .

هتف الشاب فى جزع :

ـ ماذا حدث هناك ؟

قال الطبيب :

ـ للاسف اخبار سيئة .

صرخ الشاب :

ـ سأذهب معكم ..

وجعل الشاب ينادى . حتى ظهر له شاب اخر جاء مسرعا ، وقال له :

ـ حافظ على عبد القادر ـ

ولما سمع الطبيب يقول وهو يعود الى السيارة :

ـ لاتستطيع ان تركب معنا .

صوب مدفع الرشاش الى صدر الطبيب وقال :

ـ لن أترك اهلى .. امى وابى هناك .

ادرك الطبيب انه لن يستطيع مقاومته . فادخله العربة ليجلس بجوار الاخت مارى . كانت تراقبه بعينين صافيتين . وهو يعتذر لها اقتحامه العربة . ادركت انه مرتبك يحاول اخفاء ارتباكه . قالت لنفسها : الرب ارسل الطرف الاخر المضاد لاسحق شرتوك .. كلاهما يمسك رشاشا .. ويريد ان يطلق الرصاص . وكلاهما يقول هذه ارضى .

سمعته يشرح :

ـ ابى وامى .. اخواتى .. اهلى عشيرتى .. كلهم فى القرية .

همست الاخت مارى :

ـ انى اصلى للرب .. ليسود بينكم السلام .

قال الشاب :

ـ كان السلام فى ارضنا . حتى جاءوا .. يريدون ذبحنا واخراجنا من ارضنا . لتصبح ارضهم .

قالت الاخت مارى :

ـ القتال والعداوة لن يوصلا الى شىء .

صاح الشاب :

ـ نحن لم نبدأ القتال .. نحن ندافع عن ارضنا وشرفنا .

قالت الاخت مارى لنفسها ، ان الرب له حكمة فى هذا الذى جعل اسحق يأتى ليقتل اهل هذا الشاب ويستولى على ارضه . انها ارض الصلب .. هنا دقوا المسيح فى الصليب .. هذا هو مافعلوه .. ومنذ ذلك الوقت .. وهم يحملون الصليب ويتبعونه .. ومنذ ذلك الوقت .. وهم يواصلون عادة الصلب .. وخرجت من خواطرها الحائرة التى اوشكت ان تتخلص منها بصلاة اذ توقفت السيارة عند بركة ماء .. وها هما شابان فى ملابسهما المدنية فى ايديهما مدفعان رشاشان ، وتتدلى من خصريهما خناجر عريضة .. انهما يقتربان يصوبان مدفعيهما نحو الطبيب وهو يهبط لملاقاتهما .

سمعت احدهما يصيح بالالمانية فى الطبيب :

ـ من انت ؟

يارب .. صيحة الشاب ، كأنه جندى المانى ، لكنته المانية .

وجاءت اجابة هانز :

ـ انا مندوب الصليب الاحمر .

صاح الشاب .

ـ لابد من تفتيش سيارتك . وكان الشاب الثانى قد وصل الى مؤخرة السيارة وفتحها .

وبينما كان الرجل ينقل بصره بين الاخت مارى واحمد صاح الاخر فى الطبيب :

ـ انت من الان اسير .

وصوب الرجل مدفعه الى احمد قائلا :

ـ اهبط .

كان هانز يسأل بلهجة غاضبة :

ـ من انتم ؟

وصوت رجل ضخم الجثة قادم اليهم يقول :

ـ نحن الارغون .

وكان الشاب العربى يتذكر كلمات عبد القادر ، وكأن احدا لايصوب اليه مدفعا رشاشا ، عندما يحين القتال لابد ان تكون مستعدا ، اضرب ضربتك بكل قوة وقسوة وبلا تردد . وعندما تضرب اضرب بكل طاقاتك ، لاتبخل

بشيء . فلحظة ان تضرب ، هى كل حياتك . لحظة فيها حياتك أو مماتك ولاشيء اخر . ولكننا لم نجمع قوانا . انفقناها فى الغضب والانفعالات .

وكان الرجل العملاق يصيح مقهقها فى الطبيب النرويجى :

ـ اذن انت تريد انقاذهم .

والتفت فى اتجاه الشاب العربى وقال :

ـ ولكنك جئت لنا بواحد منهم فى يده مدفع رشاش . ويبدو انك تريد انقاذه .. هو ايضا .

وعلت قهقته :

ـ وسوف ننقذه حتما وسترى الان .

١٥

ها هو الطريق الذى كان يقود فيما مضى إلى ضيعة شوكت الأنصارى ، ورجال وفتيات يتكاثرون مسلحون بالرشاشات والقنابل اليدوية ، والجميع فى أيديهم سكاكين لزجة بالدم الذى لم يغسل عنها . وها هى فتاة تربط رأسها بلفافة من الشاش تغطى عينها اليسرى وتلوح بسكينها الملطخ بالدم وهى ترقص بقفزات زنجية وتدق بقدميها على الأرض فى نشوة عارمة .

وتقدم شاب يبدو عليه انه هادىء ، صوته خفيض ، وأشار إلى الفتى العربى أن يتقدم ، وتابع خطوات الفتى بعينين تلمعان بمكر وفجأة خرج بين صفوف الشبان ، شاب يلوح بيده ، ورأى الشاب العربى يلتفت إلى داود الذى خرج من بين الصفوف ، ويتقدم نحوه ، وكلاهما يسرع الخطو نحو الآخر ، مشهد عجيب لا صلة له بما يجرى ، كأن شيئا كان مختبئا تحت الأرض وانفجر فجأة ، وكانت الأخت مارى تطل من فجوة فى السيارة وتصلى ، وقد خيل إليها أن روحا طيبة توشك أن تطرد أشباح الشر من فوق سطح الأرض ، وكأن الغمام الذى ينتشر خارجا من النفوس حاملا معه التعاسة والأحزان يوشك أن ينقشع ، وكأن شيئا لم يحدث ، فالقرية ما زالت آمنة بأهلها ، والزمان ما زال طيبا ، ولكن قبل أن يصل الشاب العربى إلى الشاب اليهودى الذى خرج لملاقاته ، كان الشاب الهادىء ذو العينين اللامعتين الماكرتين يومىء برأسه إلى المارد ، فرفع المارد بندقيته وصوبها إلى ظهر الشاب العربى ، الذى لم ير ما يحدث خلفه ، وكان مشغولا برؤيته لداود لأمر ما بينهما . وخرجت الرصاصة من بندقية المارد ، واخترقت الهواء ، تصفر وتصطدم بظهر الشاب العربى ، وتخترقه محدثة ثقبا حوله احتراق يتدفق منه الدم غزيرا بينما يسقط الفتى على الأرض أمام الفتى اليهودى الذى تلفت حوله فى فزع ، صارخا فى هستيريا :

ـ لماذا .. لماذا .. ؟

ورددت الروابى أصداء صوته ، بيتما هجمت عليه أيد كثيرة تغلق فمه وتكتم صوته وتجذبه بعيدا عن عيون الطبيب هانز أولافسون وسائق السيارة الايطالى والأخت مارى التى طفرت الدموع من عينيها وهى ترسم الصليب ، قبل أن تهبط مندفعة من السيارة تجرى نحو الشاب العربى الذى أصابته الرصاصة فى ظهره ، ولكن أيدى كثيرة تمسك بها ، ترفض أن تسمع توسلاتها ، لا تستجيب لدموعها فلم يبق إلا أن تخر ساجدة على الأرض تبكى وتبتهل .

وتقدم الطبيب هانز أولافسون من الشاب الذى كان يتظاهر بأنه هادىء ومهذب وصرخ فيه بالألمانية :

ـ لماذا تقتلونه ؟

أجاب الرجل غاضبا وأن احتفظ بهدوئه :

ـ لا تسألنا عن أفعالنا .. نحن أحرار نفعل ما نشاء .

صاح أولافسون :

ـ أذكرك ياسيدى أنكم وقعتم على اتفاقية جنيف .

قال الرجل فى هدوء وقد توارى غضبه :

ـ سيدى أنت تخرف ولا تعرف من الذين تتعامل معهم .

قال هانز منفعلا :

ـ أعرف أنكم الأرغون .

قال الرجل باسما كأنه يلقى نكتة :

ـ الأرغون لم توقع اتفاقيات مع أحد .

قاطعه هانز :

ـ الوكالة وقعت ..

قال الرجل :

ـ اذن أذهب إلى الوكالة .. فهى تحب توقيع قصاصات الورق .

وهنا تدخل المارد الذى قتل الفتى العربى :

ـ كفى هذرا .. ليس لدينا وقت نضيعه فى هذه الأمور .. لقد حسمنا الأمر برصاصة .. ومن الممكن أن ننهى المناقشة معك برصاصة أخرى .

كان المارد مع بن غوريون يوم خطب فى مؤتمر الهستدروت فى تل أبيب يرفض الارهاب والعنف . وهو يعرف تماما ما الذى كان يعنيه بن غوريون .. وكيف واجه احتجاجات أمثال هذا الطبيب النرويجى . بل لقد واجه

احتجاجات تشرشل . فمنذ أربع سنوات ، فى السادس من تشرين الثانى عام ١٩٤٤ ، ترك شابان القدس وتسللا سرا إلى القاهرة ، وتربصا فى شوارع الزمالك ، حتى مرت سيارة لورد موين الوزير البريطانى المقيم فى القاهرة لادارة شئون الحرب في الشرق الأوسط . وانطلقت رصاصات صوبها الشابان إلى صدر اللورد الانجليزى وهو راكب سيارته ، فانبثق الدم من جسده الحى وتحول إلى جثة مزقها الرصاص . أكثر من ستين رصاصة .

وفى ١٠ دواننج ستريت فى لندن ، تلقى ونستون تشرشل رئيس وزراء انجلترا النبأ . اليهود قتلوا صديقه موين .

ورفع تشرشل سماعة الهاتف ، وتدفق صوته هادرا ، يهدد ويزمان ، ويهدد بن غوريون . لقد وقف مع اليهود ، وانتصر لوعد بلفور ، فكيف يغدرون به . ما الذى جرى يا ويزمان ... كيف حدث هذا يا بن غوريون .

ووقف بن غوريون فى مؤتمر الهستدروت فى تل أبيب يخطب بصوت غلبه الانفعال :

« لابد من طرد الارهابيين من صفوفنا ، سنتعاون على القضاء على الارهاب مع الحكومة البريطانية . الارهاب وباء لو انتشر فمعنى ذلك اننا عصابات ولسنا دولة . نحن نسعى إلى تكوين منظمة والارهاب يسعى إلى أن نكون عصابة » .

بعد ان فرغ بن غوريون من خطابه ، جلس يستريح بين أعضاء الهستدروت . وكان من بين من سألوه ذلك الرجل المارد المعروف بصلاته بالأرغون .

ـ هل نوقف الحرب ضد الانجليز .. لو تساهلنا معهم .. فلن يخاف منا العرب .

قال بن غوريون بلا انفعال :

ـ بعد قليل سوف يهدأ الغضب وتشرشل عجوز .. وسيجيء وقت ينسى فيه كل شيء ..

وابتسم بن غوريون وهو يتلفت حوله قبل ان يوجه نظراته وخطابه إلى المارد :

ـ عندما تهدأ العاصفة .. يمكننا أن نستأنف من جديد .. بشرط أن نبدأ بعملية واحدة ضخمة .. ليتأكدوا أننا جادون .. فأما أن ينفذوا عهودهم أو نستمر فى عملياتنا .

وجلس مناحم بيغن فى اجتماع يضم قيادات الهاغناه والأرغون وشتيرن ، ينظمون استئناف العمليات والتنسيق فيما بينهم .

وقال بيغن لمندوب الهاغناه :

ـ نحن مسرورون لأنكم غيرتم رأيكم .. وعدتم لمحاربة البريطانيين بعد أن تخليتم عنا وخفتم بعد مقتل لورد موين .. وأنا أقولها لكم .. إذا تخليتم عنا مرة أخرى فسنمضى وحدنا فى القتال . لأن قتال الانجليز .. هو مقدمة ضرورية لاخافة العرب واجبارهم على اخلاء أرضنا .. ولابد من طردهم لافساح المكان للقادمين .

منذ ذلك الوقت ، والمارد يعلم أن مهمته الأولى أن يقتل أى عربى فى أى وقت ، وأينما شاء ، مادامت الفرصة أمامه متاحة .

ولوح المارد ببندقيته فى وجه هانز أولافسون قائلا :

ـ لا صلة لنا بهاغناه أو وكالة . كل ما نعرفه هو هذا ..

وهنا بدا للأخت مارى انها فهمت ما قاله لها اسحق شرتوك وهى تطلب منه ان يسمح لهم بالحضور إلى هذا المكان . قال لها أدينا واجبنا وانتهى الأمر وها هى تسمع صوته يردد لا معنى للذهاب .. لايوجد جرحى .

وانطلقت منها صرخة ، فأسرع إليها هانز ليجدها جاثية على ركبتيها تبتهل وهى تهمس بصوت محموم :

ـ لقد أجهزوا عليهم جميعا .. حتى الجرحى .. لم يبقوا على حياة الجرحى .. ارتجف جسد هانز ، سرت فيه قشعريرة باردة .. يا الهى .. كيف .. ولكن هذه الخناجر المضرجة بالدماء التي يلوحون بها فى نشوة هستيرية ، تعنى أنهم ذبحوا الجميع .

قال الطبيب بصوت متحشرج والغضب يتصاعد فى عينيه :

ـ أين الجرحى ...

فواجهوه بصمت .

فاندفع يصرخ :

ـ أين الجرحى .. هل قتلتم سكان القرية جميعا .

قال المارد :

ـ لا داعى للمبالغة .. لقد فروا ولا يوجد سوى بعض القتلى .

قال الطبيب وهو يتقدم :

ـ عليكم أن تقتلونى إذا أردتم منعى من التقدم إلى القرية ..

وتقدم على قدميه ، وتبعته السيارة تسير ببطء وقد عادت إليها الأخت

ماری . ولم يعترض طريقهم أحد . مضوا بين شبان يرتدون الخوذات على رءوسهم ، وكل خطوة يتقدمها هانز تشجعه على مواصلة السير فى انتظار الموت ينقض عليه فى أية لحظة .

ولكن أى موت . لقد رآه كما لم يره أحد . الجثث . اشلاء الجثث ، أصابع مقطوعة ، بطون خرجت امعاؤها .. رءوس مفصولة . أجزاء من أطفال . يد طفل أو طفلة ، ساق طفل أو طفلة ، الموت فى كل بيت ، الرجال فى المقدمة تمزقت أجسادهم ، تهشمت الجماجم وتناثر ما بداخلها ، كل جسم فيه مائة ثقب ، والدماء تغطى الأرض عليها وقع أحذيتهم . وبعد الرجال تأتى أجساد واشلاء النساء ، كان هناك وقت كاف للتمثيل بالجثث ، للهو بالأرحام ، والأجنة ، لتقطيع الأحشاء لاخراج العيون من مآقيها . عند أحد الأبواب وجد فتيات شاهرات المدافع الرشاشة .

وصاحت واحدة منهن :

ـ لا تتحرك .

سألها بلهجة آمرة :

ـ هناك جرحى ؟.

لابد أنها تخفى جرحى .

قالت :

ـ إذا كان هناك جرحى فسوف نحضرهم لك .

صرخ وهو يدفع الفتاة ويزيح مقدمة المدفع الرشاش المصوبة إلى صدره :

ـ أنتم تجهزون عليهم .

هجم مخترقا أجسادهن ، مندفعا فى الفناء ، حيث قابلته أجزاء رجلين قطعوا أوصالهما . ودخل حجرة معتمة كل شىء فيها محطم ، وفى الحجرة التالية وجد جثة امرأة فى العشرين مقطوعة الثديين ، وبجوارها جثة امرأة لا رأس لها شقت السكين بطنها بالطول وبالعرض فتبدلت امعاؤها . وهو يلتف حول الجثة ، اصطدمت قدمه بجسم طرى وخيل إليه أنه سمع أنينا . يا إلهى . كانت طفلة فى الرابعة جسدها ممزق . اقترب منها وحملها بين يديه . وفى الحال ظهر الشاب من حوله الفتيات يسدون الباب . يردن منعه من الخروج . دفعهن غير عابىء بشىء . ومضى بالفتاة إلى السيارة ليضع الطفلة بين يدى الأخت مارى . وكان يسمع طلقات الرشاشات قد انطلقت

مجمومة . هجموا فى جنون يعيدون قتل الجثث خشية أن يظهر بينهم أحياء آخرون . وحاول هانز ان يسبقهم إلى بيوت أخرى ، ولكنه عندما وجد المرأة العجوز مختبئة بين أخشاب المنجرة كانت ذاهلة فاقدة النطق ، ما كاد يقترب منها ، حتى اطلقت شهقة وقد امتلأت عيناها بفزع ، وسقطت ميتة .

كان جسد الفتى العربى مازال مسجى على الأرض عند البركة عندما جاءت سيارة النقل التى أرسلها الطبيب ، لتتولى نقل الجثث ودفنها .

وكان رجال من العرب ينتظرون فى مقر الصليب الأحمر ، فلما راوا الطبيب قادما سألوه :

ـ ماذا حدث ؟.

نظر إليهم صامتا ، واكتفى بأن قال :

ـ جئت بطفلة نتولى علاجها .

وتعالت الأصوات :

ـ أين الطفلة ؟

الكل يريد أن يذهب إليها ليسألها ، بينما تعالت صيحات :

ـ والآخرون .. ما أخبارهم ؟

رفض الطبيب أن يجيب ، وقال ان الطفلة لاتستطيع الكلام . وجمع قواه ليقول بلهجة حرص على أن تكون وقورة .

ـ مازلنا نجرى اتصالاتنا .. سوف نعرف المزيد فيما بعد ..

وقال لنفسه . أى مزيد . لم يبق إلا مواجهة جثث الموتى ودفنهم .

وقد طلبت الوكالة اليهودية من مسيو جاك رئيس البعثة ان يتولى بنفسه دفن الموتى . وقال جاك هانز !

ـ أنهم لا يريدون تسجيل مشهد يسلمون فيه الجثث للعرب .

وهز رأسه مستنكرا وأردف :

ـ من يدرى .. قد يتهمون الصليب الأحمر . قد يزعمون اننا السبب فيما حدث ؟!

وأصدر مسيو جاك تعليماته :

ـ عليكم باعداد قوائم بالقتلى .. حاولوا التعرف عليهم .. واعدوا مكانا معروفا لدفنهم .

عندما عاد الطبيب هانز أولافسون إلى القرية . كانت فتيات الأرغون قد نظمت فى الساحة فى نظام دقيق ، بينما فرغ آخرون من حفر خندق كبير ،

اشترك في حفره داود ، وأشرف بتوجيهاته على الحفر معتمدا على خبراته السابقة التى اكتسبها فى حفر الخنادق فى المعسكر الألمانى . كان يرى الضابط الألمانى ، وهو يسأله عن اسمه ، وعن المكان الذى جاء منه . وهو يجيبه انه عربى من فلسطين .

وهذا هو قدره اليهودى .. ان يتنكر لربه . كما فعل اجداده مع موسى . يتنكرون للرب ، ثم يبكون ويندمون ويلطمون الخدود . ولكنهم الآن تخلصوا من البكاء والندم . لم يبق إلا التنكر والنكران وها هى الأحزان تجتاحه ، فيرحب بها . تحمل إليه الحزن الذى كان يسمعه فى صوت أمه ، ويحمل إليه الحزن فى صوت أبيه . هناك جاذبية نحو الأحزان والعذاب والندم . تشدنا نحن اليهود إليها . ولانهاية لهذا البحر الذى يقف على شاطئه ، بينما تسقط الجثث فى الحفرة دون أن يسألها عن الأمم والموطن ، كما كان يفعل الضابط الألمانى معهم ليسجل بدقة اسماء من ينفذ فيهم حكم الاعدام ..

ورأى داود الطبيب هانز أولافسون يقف بجوار صفوف الجثث ، وفتاة تساعده فى تفتيش جيوب القتلى لعله يجد أوراقا تدله على أصحابها ، عندما رفعت رأسها ، عرف أنها شقيقته سارة .

وكانت تقول لهانز أولافسون قبل ان تمد يدها إلى الجثة التى جاءوا بها أخيرا وألقوا بها فى نهاية الصف ، حيث يقف هانز مع سارة :

- أما هذا فاسمه أحمد .

وسألها هانز فى دهشة :

- أتعرفينه ؟

قالت بصوت أجش :

- لا .. لم أعرفه أبدا .

ولم يسألها هانز كيف عرفت اسمه كانت خشونة صوتها ، تعنى أنها لاتستريح لمواصلة الحديث .

وقضى هانز النهار كله والمساء حتى انتصف الليل ، واقبل يوم جديد ، وهو يواجه جثثا أخرى لم تلحق بالصفوف المنتظمة . وقد اشتعلت محرقة يلقون فيها بالاشلاء واللحم الآدمي المهترىء . فانبعثت رائحة شواء مع رائحة تحلل الجثث . فلما عاد إلى المستشفى عند الفجر ، كان الشاب الذى استقبله مع المارد يزورانه ، وقدم له الشاب ورقة قائلا بصوته الهادىء الخفيض :

- أرجو أن توقع عليها .

قرأ هانز فى الورقة ، أنه قوبل بترحاب ، وقدمت إليه جميع التسهيلات لأداء مهمة الصليب الأحمر فى قرية د ..

انتفض هانز من الغيظ وقال بين أسنانه :

ـ هذا التقرير ينقصه الكثير .. انه لا يذكر أنكم قتلتم شابا عربيا اسمه أحمد باطلاق الرصاص غدرا على ظهره .. لم يذكر ما فعلتم بالجرحى .. لم يذكر النساء والأطفال .

قال الشاب بصوت بارد خفيض كأنه يهمس :

ـ عليك أن تختار .. أما أن توقع هذه الورقة وتحيا أو ترفض التوقيع وتموت .

قال أولافسون وهو يرقب نظرات المارد الحارقة التى يوجهها إليه :

ـ لقد أرسلت تقريرى بالفعل إلى جنيف .

وفجأة ابتسم الشاب قائلا لزميله المارد :

ـ اسمعته .. لقد أرسل تقريره إلى جنيف ..

وتقدم المارد نحو هانز .. ووضع يدا ثقيلة على كتفه وقال وهو يطلق قهقهة عالية :

ـ جنيف .. منيف .. أى نيف .. أى بلد فى العالم .. لايهم واستدار الاثنان وخرجا .

١٦

لم يبق أمامى فرصة لمواصلة الكتابة ، فقد طلب منى الطبيب ألا أبذل أى جهد ، وألا أسجل أحلامى ، أو خواطرى ، فقد زادت الآلام واشتدت فى رأسى ، وزادت العتمة فى عينى ، وأصبح الغمام منتشرا فى كل ما أراه من حولى .

ولكنى فى لحظات متقطعة ، أقاوم العتمة ، والغمام ، ويخيل إلى أنه انقشع فتدب فى أوصالى حياة أعرف أنها توشك أن تفلت منى .

وتتراءى لى مشاهد من ذكرياتى يخيل إلى أنها تأتينى كتدبير من الله سبحانه وتعالى ، فما زالت ارادته فوق ارادة جميع البشر ، ولها اشارات تكشف عن نفسها لمريض مثلى وهو يشرف على نهاية الرحلة على ظهر الأرض . أنها اشارات كالأساطير أو هى حقائق ، والأيام حبلى بها ، ربما ستتكشف عنها بعد طول انتظار فى عالم الغيب .

مثل هذه الاشارة التى اذكرها عندما وقف الشاب الدبلوماسى فى مقر السفارة المصرية بالكويت يرحب برب الأسرة الفلسطينية ، ويقول له ضاحكا :

ـ ليست لدينا أكثر من خمسة أرقام لكتابة أسماء الأولاد فى استمارات السفر .. وأنت ما شاء الله لديك أربعة عشر ولدا .. وسوف نكتبها فى عدة صفحات فى جواز سفرك وتشير إليها ..

قال الأب :

ـ لا يكفى فلسطين أربعة عشر ولدا من أم واحدة ..

ومثل تلك الاشارة فى قصة أبو هيثم الذى ذهب يزور فلسطين ليرى أرضه التى سلبوها ، وبساتينه وبياراته وأخشابه التى كان يعمل بها فى مناجره ، فلما وقف على الأرض ، يتلفت حوله ، فلا يرى البيارات ولا البساتين ، ولا الدور التى يعرفها ولا الأخشاب .. جعل يحدق بعينيه ، باحثا عما كان يجب أن يراه .. فلما عجز عن رؤيته ، صرخ ، وقد أصابه

عملي مفاجيء ، تبين أنه مؤقت ، ولكنه عرف أن جسمه وعقله ، لن يسمحا برؤية شيء آخر غير مايجب أن يكون .

ومثل تلك الاشارة ، في حكاية الحفيد الذى استلم من أبيه وهو على فراش موته ، مفتاح داره في يافا . وفي لحظة من لحظات الألم أخرج المفتاح من صندوقه ، ونظر إليه في حقد صارخا :

ـ أحافظ عليك أنت .. ولا أحافظ على أرضي .

وألقى بالمفتاح في النيل ، واختفى من مصر ، وشوهد آخر مرة في مركب صيد يقترب من الشاطيء شمال حيفا .. وتعقبته زوارق اسرائيلية ، ولكنه كان قد اختفى في الأرض .

ومثل تلك الاشارة للضابط المصرى المتقاعد ، وهو يروى كيف كان يعبر سيناء بقوافل الجمال تحمل السلاح . ويقول لمن حوله في المقهى : خرج على ذات يوم شاب فلسطيني ، وكنت اسير في الطريق بين المعسكر الانجليزى والقدس . وما كاد الشاب يعرف انى ضابط مصرى حتى أمسك بأصابع متشنجة بذراعي ، وجعل يهزني قائلا :

ـ بتريد فشنك .

ويهز العجوز رأسه في عينيه حزن :

ـ جاء يوم كدت اضرب نفسي فيه بالرصاص .. عندما علمت ان السلاح الذى كنا نورده كان نصفه فاسدا .

ومثل تلك الاشارة لهذا الصندوق في بيت الفلسطيني الذى يعيش في بورسعيد يحمل بداخله أوراق التسجيل في الشهر العقارى لاملاكه .. سوف يحمل أولاده هذا الصندوق في طريقهم إلى القدس ، كما حمل جنود اليهود صندوق الشريعة يتقدمون به إلى القتال . لابد أن يتحقق العدل الذى تثبته المستندات والأوراق في الصندوق . عندما هجموا على بورسعيد عام ١٩٥٦ ، كان مازال فتى يذكر خروجه من قريته منذ ثماني سنوات ، وهبط إلى الشارع ومعه بندقية حصل عليها من مركز توزيع السلاح وانضم إلى المقاومة . لقد جاءوا خلفه من كفر قاسم إلى بورسعيد . ولابد من وقفة ومن عودة ومعه الصندوق .

أما تلك السيدة الفلسطينية في الخامسة والأربعين من عمرها ، فهى لاتذكر سوى أنها جاءت من مستشفى الصليب الأحمر في القدس ، ويقال إنهم عثروا عليها في بيت ذبح اليهود كل من كانوا فيه ، وتقرأ السيدة

صباح كل يوم الصحف ، وتسأل فى عجب :

ـ لماذا يحاصروننا فى لبنان ويمنعون عنا الطعام .. لماذا يريدون ذبحنا ؟ وتقذف بالجريدة مخاطبة نفسها :

ـ هذا كذب .. لايقتل ولا يذبح الفلسطينيين سوى يهود اسرائيل .

وفى النادى الكبير كان يجلس شارد النظرات ، واقترب منه الصحفى يسأله :

ـ أتتذكر البيارات .. أتتذكر الزيتون والبرتقال ؟

فيهز رأسه .. ولا يجيب .. فإذا ألح الصحفى بالسؤال .. قال له :

ـ ما الذى تريده منى .. اتركنى فى حالى .

فيقول له الصحفى :

ـ كيف أتركك فى حالك .. وابنك متهم بخطف طائرة ..

كل هذا والشيطان يبتسم ولكن إلى حين .

كنت أسير فى طريقى إلى عيادة الطبيب ، وزحام شوارع القاهرة يحاصرنى ، غادون ورائحون فى يوم حشر ، الأكتاف تزاحم الأكتاف وقلبى يدق دقاته الأخيرة . وسمعت صوتا قويا ينادى :

ـ أحمد .. أحمد ..

لم ألتفت إلى الصوت ، الذى خيل إلى أنه يطغى على الأصوات فى شوارع المدينة ، وسمعت الصوت يردد النداء من جديد ، فارتجفت رغم أن اسمى ليس أحمد ، والتفت لأرى لعجبى صبيا فى سن المراهقة ، له وجه وسيم وعينان نافذتان وعلى شفتيه ابتسامة ، عيناه تخترقان صدرى وتشتبكان بعينى وهو يقول لى بلهجة امرة :

ـ أحمد سالم .. لماذا لا تقف وتلبى ندائى .

نظرت إليه أحاول أن أتعرف عليه ، أحاول أن أفهم مايقوله .. وهمست بصوت واجف :

ـ اسمى ليس أحمد سالم .

قـــال :

ـ بل هذا هو اسمك .. وأنت تعرف هذا .. وتاريخك كله معروف عندى .. منذ ولادتك حتى آخر يوم فى حياتك ..

فزعت فزعا لم أعرفه من قبل، لولا أن ابتسامته كانت عذبة ، وعيناه مسماران من الصلب يمسكان بى ويمنعانى من السقوط .

كنت أهمس :

ـ آخر يوم فى حياتى .. ما الذى تعنيه ؟ .. قلت لك أنى شخص آخر .
قاطعنى وهو يتقدم بجرأة فيتأبط ذراعى ويدفعنى إلى السير بحركة سريعة نشيطة وهو يقول فى مرح :
ـ لا وقت للجدل .. لقد نفذت الرصاصة فى ظهرك وأنت مقبل على داود .. أتنكر هذا ؟
همست ورأسى يدور :
ـ أتعرف هذا ؟ ..
ردد باسما كأنه يشجعنى :
ـ نعم .. نعم ..
وأردف يقول :
ـ لقد تمنيت فى تلك اللحظة أن تفهم .. أليس هذا هو ما طلبته ؟
رأيت فى عينيه قريتنا وأبى وأمى وأخواتى .. نفذت الرصاصة وتمزق قلبى والدم يتفجر .. كلها لحظات وأغيب عن هذه الدنيا ، لم تبق سوى ثوان معدودة ، ربما أقل لكى يتم الحساب ويكمل الفهم .. لماذا كانت نهايتى على أرضى على هذا النحو .. الويل لى أن أموت قبل أن أفهم .. سأكون فى عداد المغفلين قبل أن أكون فى عداد الشهداء .
أفقت من هواجسى أريد أن أتوقف عن السير ، ولكن الصبى يجذبنى بعيدا .. همست متوسلا :
ـ من أنت ؟
عيناه تفيضان حنانا ونشوة .. ابتسامته أفق بلا حدود ، صوته القوى يقول فى فرح :
ـ أنا أحمد سالم .
دمعت عيناى .. الكلمات اسمعها بمسام جسدى كله .. صدقته كما لو كان من الأنبياء .

كان يقول بافراحه :
ـ أنا ابنك .. أحمد سالم .
صدقته وأنا أهمس :
ـ ولكنى لم أتزوج .. ولم تلد لى امرأة أطفالا .
ورأيت سارة والسكين فى يدها يقطر دما .. لم أحب سواها .
وكان يقول لى :

- فى أرضنا تلد الأرض الأبناء كما تلدهم أرحام الأمهات .
همست :
- متى ولدتك الأرض ؟
قال ضاحكا وضحكاته تتحول إلى قهقهة صاخبة :
- يوم خضبت الأرض بدمك .
همست :
- يوم قتلنى ذلك المارد .
قال ساخرا :
- أى مارد .. ليس بينهم مردة ولا عمالقة .
ورأيته ينحنى على الأرض ويمسك بحصاة .. وقال فى مرح وهو يقذف بالحصاة بعيدا :
- اننا نرجمهم كما نرجم الزانى والزانية .
سألت فى لهفة :
- متى يحدث هذا ؟
قال بسرعة :
- الآن ..
يا إلهى . نظرت حولى ، كانت شوارع المدينة قد اختفت ، رغم انى مازلت اذكرها . ورأيت أمامى غابة من أشجار الزيتون وكان نور الفجر يشقشق فى السماء ..
وهمست بصوت ضعيف :
- إلى أين تمضى بى .
قال وهو يضمنى إلى صدره :
- أما وقد عرفتنى .. آن لك أن تستريح .
كانت سحب كثيفة رمادية فى السماء ، وكأنى أسير إليها مبتعدا عن الأرض . وكانت قدماى تقودانى إلى سرداب تحت أشجار الزيتون .
وكان أحمد سالم يبتسم .

رقم الإيداع : ٤٢٨٤ /
الترقيم الدولى : ٩ - ٤٢٥ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

روايات الهلال تقدم

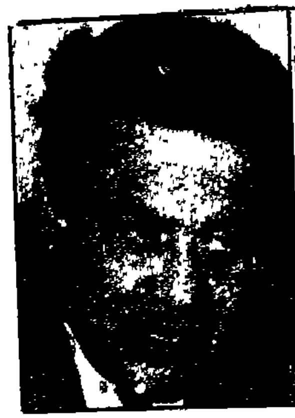
أطفال بلا دموع

بقلم :

علاء الديب

تصدر : ١٥ يولية ١٩٨٩م

هـذه الـروايـة



فتحـى غانـم

● ولد فتحى غانم فى القاهرة عام ١٩٢٤ فى أسرة مصرية بسيطة .. درس الحقوق وتخرج عام ١٩٤٤ فى جامعة القاهرة .

● اصدر مجموعته القصصية « تجربة حب » عام ١٩٥٧ .. اما روايته الاولى « الجبل » فقد صدرت عام ١٩٥٩ .. وقد تتابعت رواياته التى من أهمها رباعية « الرجل الذى فقد ظله ، والساخن والبارد ، والافيال ، وزينب والعرش » .

● انفردت روايات الهلال بنشر أعماله الأخيرة مثل « بنت من شبرا » وحكاية تو » .

●●

« من أين أبدأ الفهم .. من هذه الرصاصة التى انطلقت .. ان داود لم يطلق الرصاصة .. كان يجرى نحوى مادا يديه .. ذراعاه تطولان لتمسكا بذراعى ، عيناه ترسلان نظرات تريد اللقاء بنظرات عينى ، ابتسامة وجهه تبحث عن ابتسامة وجهى ، هذا هو داود الذى عرفته .. ولو كان وصل الىّ قبل الرصاصة لتسابقنا من جديد وضحكنا ، وارتمينا على الأرض نلهث مثلما كنا نجرى أيام الانجليز ، ولكنه نظر الىّ فى دهشة ، فى عينيه فزع ، والتفت وراءه ، وآخر نظراته إلىّ كانت كلها رعبا . تقدم خطوة ، ثم استدار كما لو كان عقرب لدغه .. إنه يبتعد وأنا أسقط على أرضى ، والرحلة بين الوقوف والوصول الى أرضى طويلة مازالت هناك فرصة للفهم أثناء السقوط فى لحظات السقوط .. ليس هناك أمل فى أن أعود الى الحياة ، ولكنى لو فهمت فسوف يبقى الفهم ، وسوف تبقى الحياة .. الويل لى أن أموت قبل أن أفهم ، قبل أن أدرك ما الذى حدث .. وما الذى يحدث .. هذا هو الضياع الحقيقى .. سأكون فى عداد المغفلين قبل أن أكون ـ كما أتوقع أن يقولوا عنى الآن ـ فى عداد الشهداء المناضلين .

من رواية أحمد وداود .. آخر ماكتبه الروائى الكبير فتحى غانم فى مغامرة أدبية انسانية جريئة اقتحم فيها اسرار الصراع فى ارض فلسطين بين أحمد المسلم وداوذ اليهودى ..